

مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

المدير

توفيق عمروني

رئيس التحرير

عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:

عمر الحاج مسعود

عثمان عيسي

نجيب جلواح

التصميم والإخراج الفني

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

أيُّها القرَّاء الكرام

نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد

ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة **«الإصلاح»**

وسيلة لنشر العلم النَّافع

العنوان:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

المراسلات:

ص ب 640 ـ 16008 ـ الجزائر

darelfadhila@maktoob.com

التوزيع:

جوال: 08 53 62 (0661)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بالله منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

تجدون في هذا العدد...

اغتنـــام الحيـــاة

التحرير

إنَّ ممَّا اتَّفق عليه العقلاء قاطبة أنَّ الرَّشيد هو من اغتنم الفرص ولم يضيِّعها، واستفاد ممَّا أُتيح له ولم يفوِّته، وأنَّ السَّفيه من ضاعت عليه الفرص كالصَّائد الَّذي تمرُّ عليه الظِّباء وهو ينظر إليها ولا يحرِّك ساكنًا.

والمسلم يتعيَّن عليه أن يكون أكثر النَّاس رشدًا وفطنة ونباهة، فلا يتردَّد في اقتناص الفرص واغتنام الأوقات؛ بل قالوا: «إنَّ سرَّ نجاح المرء في الحياة في مدى استعداده لاغتنام الفرص السَّانحة».

وإنَّ أعظم فرصة للمسلم الَّتي لا يليق به أن يفرِّط فيها هي حياته الَّتي هي مجموعة أنفاسه وأوقاته، ومدَّة مكثه فوق الأرض يدبُّ عليها، واغتنامُه لها بأن يجعلها في طاعة الله عز وجل ولا تخرج عن دائرة تحقيق العبوديَّة والتَّوحيد لله سبحانه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام].

ومعنى ذلك أن تكونَ حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله الظَّاهرة والباطنة تدور في فلك واحد وهو رضى الله عز وجل وحده دون سواه، فلا يفوته واجب من الواجبات، ولا يذهل عن الطَّاعات والقربات، مجتنبًا مساخط الله من المعاصي والموبقات.

وليس كما هو سائد اليوم في الخطاب على مستوى وسائل الإعلام المتنوِّعة، المقروءة والمسموعة والمرئيَّة من أنَّ اغتنام الحياة هو استغلال الأوقات في المرح واللَّعب واللَّهو والرَّاحة والمتعة أو في اكتساب حطام الدُّنيا وزيادة الثَّروة ونحو هذه المعاني، حتَّى إنَّه لم يعد يتبادر إلى الذِّهن عند إطلاق عبارة «اغتنام الحياة» سوى هذا المعنى المنكوس والفهم المعكوس.

فيجب الانتباه وعدم مجاراة أهل الباطل والفساد، وأهل اللَّهو والعناد؛ لأنَّ المسلم يعلم أنَّ وظيفته في هذه الحياة ليست مقصورة على السَّعي في تحصيل ما يريح بدنه، وتلبية رغباته وشهواته، بل خُلق لأمر أعظم ومطلب أسمى وأجلّ وهو السَّعي في تحقيق رضى ربِّه سبحانه،

فليس في قول النَّبي ﷺ لرجل وهو يَعِظُه: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**» [أخرجه الحاكم (306/4)، انظر: «صحيح الجامع» (1957)] سوى هذا المعنى وهو أن تغتنم هذه الأمور الخمسة: الشَّباب والصِّحَّة والغنى والفراغ والحياة في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وتجعلها مطيَّةً لنيل رضى الله جلَّ ذكره، وانتهاز الفرصة قبل حلول ما يضادُّها.

وإنَّ ممَّا يدفع المسلم لاغتنام حياته إدراكه الجازم أنَّ الحياة الدُّنيا ممرٌّ لا مقرٌّ، وأنَّها دار غربة وارتحال لا دار وطن واستقرار، قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ [غافر]؛ فليس أعقل ممَّن فهم ذلك وظهر أثره عليه.

فالعاقل من قدم الآجل الباقي على العاجل الفاني، وانشغل بدار القرار على دار الاغترار، فأقبل على الطَّاعات والإكثار من القربات، والجدّ في العمل، وتلافي الخير قبل فوات الأجل.

ذلك لأنَّ الاعتقاد الجازم واليقين بالآخرة سدٌّ وحاجزٌ دون الصِّراع المجنون المحموم على حطام الدُّنيا الَّذي تداس فيه أحكام الشَّرع ويُتَعدَّى فيه على الحرمات بلا تحرُّج ولا حياء.

فلا ينبغي أن يذهل المسلم عن أنَّ وراء هذه الحياة حياةً أخرى هي خيرٌ وأبقى، فيها العَطاء، وفيها الغَناء، وفيها العوض الَّذي يُنسي ما فات.

وإنَّ هذا التَّصور لو تمكَّن في النُّفوس لأضفى على حياة المسلمين اليوم جوًّا منَ الرَّاحة والطّمأنينة، تسعد بها أفرادهم ومجتمعاتهم، ولكان قمينًا أن يشيع روح التَّنافس والتَّسابق فيما ينفع لا فيما لا ينفع ولا يفيد؛ وفي طلب النَّعيم الَّذي لا يفنى ولا يبيد، وأن يخفِّف السُّعار الَّذي ينطلق من الشُّعور بأنَّ الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذه الحياة، وأن اغتنامها بإشباع النَّفس من رغباتها وشهواتها، كما يروِّجه المبطلون.

وإنَّ ممَّا يصرف المسلم عن اغتنام الحياة والأوقات في الطَّاعات والصَّالحات طولُ الأمل والتَّسويف، إذ ليس أضرَّ على العبد من «التَّسويف».

فالمطلوب عدم تأخير التَّوبة وتعجيل الإنابة إلى الله؛ لأنَّ هجمة الأجل غير مأمونة، وأوقات المنايا غير معلومة، وعلى العبد أن يكون على أهبة الاستعداد للقاء الله في أيِّ لحظة من لحظاته، وفي أيِّ ساعة من ساعاته، وعليه أن يقدِّر نعمة الإفاقة من النَّوم عند كلِّ صباح ليحيا يومًا جديدًا لعلَّه يكون فيه فرصته



ليستعتب أو يتوب أو يزداد فيه خيرًا، لذلك شرع الدُّعاء بالحمد على هذه الحياة فيقول العبد عند الاستيقاظ من نوم الصَّباح: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أحْيَانَا بَعْدَمَا أمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**» [رواه البخاري (6312)].

وكتب سعيدُ بن جُبير رحمه الله: «اعلم أنَّ كلَّ يوم يعيشه المؤمن فهو غنيمة» [«تاريخ يحيى بن معين» للدوري (2/ 34)].

وأخرج ابن أبي الدُّنيا في كتاب «الزُّهد» عن بكر بن عبد الله المزني رحمه الله أنَّه قال: «ما من يوم أخرجه الله لأهل الدُّنيا إلاَّ نادى: ابنَ آدم اغتنمني، لعلَّه لا يوم لك بعدي، ولا ليلة إلاَّ تنادي: ابنَ آدم اغتنمني، لعلَّه لا ليلةَ لك بعدي».

ومن أراد الوقوف على نماذج لأناس أدركوا معنى اغتنام الحياة، فليطالع في كتب السِّير والتَّراجم والتَّاريخ؛ ليجد في تلك الفصول ما تدهش له العقول، من قوم امتلأت أوقاتهم بالطَّاعات والقربات حتَّى قيل في أحدهم: لو قيل له: إنَّك ستموت غدًا ما وسعه أن يزيد من العمل شيئًا؛ لامتلاء يومه بالطَّاعات والقربات.

وهذا شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كما يحكي عنه تلميذه الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إنِّي إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقت، وما أسلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا» [«مدارج السَّالكين» (1/ 524)].

فأمثال هذه النُّفوس الأبيَّة تدرك المعنى الحقيقي للحياة، ومعنى اغتنامها، وفيما يجب أن تُصرف فيه الأوقات والأعمار، وهو إعمارها بالطَّاعات والقربات والأعمال الصَّالحات، فلا يمضي يوم إلاَّ وقد ازداد فيه قربًا من الله جلَّ جلاله، فيصلح معايبَه، ويتداركُ فارطه، ويغتنم بقيَّة أنفاسه، ويزداد توغُّلاً في الخير حتَّى يغدو يومه خيرًا من أمسه، وغده خيرًا من يومه، وهكذا دواليك حتَّى يلقى ربَّه جل جلاله.

فمن كان بهذه المثابة كانت حياته وطول بقائه خيرًا له، لذا قيل قديمًا: «إنَّ بقيَّة عمر المؤمن لا قيمة له» أي أنَّه لا يُقدَّر بثمن، وأفضل منه قوله ﷺ لما سئل عن خير الناس فقال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**» [رواه الترمذي (2329) وهو صحيح].

فليبادر العبد إلى اغتنام فرصة حياته من قبل أن يُقضى عليه بالموت، فينقطع عنه عمله، وتفوت عليه فرصته، ويُحال بينه وبين ما يشتهي.

ولا يُعقَل أن يضيِّع المسلمُ أيَّ باب من أبواب الخير إذا فتح له، فقد لا يتهيَّأ له بعد ذلك، ويُخشى أن يُعاقب على تفريطه بما هو أسوأ.

قال ابن القيم رحمه الله: «والله سُبحانه يُعاقب مَنْ فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول

بين قلبه وإرادته، فلا يُمكنه بعد من إرادته عقوبةً له، فمن لم يَستَجِبْ للّهِ ورسوله إذا دعاه، حالَ بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابةُ بعد ذلك» [«زاد المعاد» (3/574)].

فمن لم يغتنم حياته ندم وأسف حيث لا ينفع النَّدم والأسف، وتقطَّعت نفسه من الحسرات، وتمنَّى ما لا يكون، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون].

وأمَّا من اغتنم حياته في طاعة الله سبحانه فإنَّه سيحيا حياة طيِّبة في الدُّنيا، وينال أحسن الجزاء في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97].

وقال ابن رجب رحمه الله: «السَّعيد من اغتنم مواسم الشُّهور والأيَّام والسَّاعات وتقرَّب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطَّاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النَّفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النَّار وما فيها من اللَّفحات» [«لطائف المعارف» (ص11)].

فليغتم المسلم الأيَّام والمواسم والأوقات ولا ينجرف وراء الشَّهوات والملذَّات الَّتي يعيش معها في أوهام، ويسرح فكره حولها في خيال، ويحسب أنَّه يجد فيها سعادته، وما هي إلاَّ سعادة السَّراب، فإذا انقضت المواسم والأعمار ووقف بين يدي العليِّ القهَّار علم أنَّه تأخَّر حيث كان يظنُّ أنَّه تقدَّم؛ والله الهادي إلى سواء السَّبيل.

رمضان شهر الإقبال على القرآن

عباس ولد عمر
إمام خطيب. الجزائر

إنَّ نِعم اللَّه على عباده شتَّى، وآلاءه عليهم لا تُحصى، ونِعم اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ علينا ظاهرة وباطنة: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

وإنَّ من أعظم تلك النِّعم، وأكبر الآلاء على أمَّة الإسلام، بل على النَّاس جميعا؛ نعمة إنزال القرآن، الَّذي أخرج اللَّه به النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، قال تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [سورة إبراهيم].

القرآنُ كلامُ اللَّه الَّذي أعجز به البلغاء، وهدى به الأتقياء: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الإسراء].

القرآن حَبْلُ اللَّه المتين، وصراطه المستقيم، ودينه القويم، فهو «عصمةٌ لمن اعتصم به، وهدًى لمن اهتدى به، وغنى لمن استغنى به، وحِرْز من النَّار لمن اتَّبعه، ونور لمن استنار به، وشفاء لِما في الصُّدور، وهدى ورحمة للمؤمنين»[1].

وقد خصَّ اللَّه ـ سبحانه ـ هذا الشَّهرَ الَّذي بين أيدينا ـ شهر رمضان ـ بإتمام هذه المنَّة الجسيمة، وإكمال هذه النِّعمة العظيمة، تشريفاً له وتفضيلاً، قال اللَّه عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185].

قال أهل العلم: إنَّما خصَّ اللَّه شهر رمضان بفرض الصَّوم لِما حصل للنَّاس فيه من إكمال النِّعمة عليهم بإنزال القرآن.

يقول العلاَّمة ابن السَّعدي: «فحقيقٌ بشهرٍ هذا فضله وهذا إحسان اللَّه عليكم فيه؛ أن يكون مَوْسِمًا للعبادة، مفروضًا فيه الصِّيام»[2].

ويقول الشَّيخ الطَّاهر بن عاشور: «واختير شهر رمضان ـ يعني لفرض الصِّيام ـ من بين الأشهر؛ لأنَّه قد شَرُف بنزول القرآن فيه، فإنَّ نزول القرآن لَمَّا كان لقصد تنزيه الأمَّة

(1) «أخلاق حملة القرآن» (ص6).

(2) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص71).

وهداها؛ ناسبَ أن يكون ما به تطهير النُّفوس والتَّقرُّب من الحالة المَلَكيَّة واقعًا فيه»[3].

فإذن؛ رمضان هو شهر القرآن نزولاً، فعلى أهل الإيمان أن يجعلوه شهر القرآن كذلك إقبالاً وتلاوةً، تدبُّرًا وتفهُّمًا، حفظًا ومدارسة، عملاً وامتثالاً.

ولهذا كان من هدي نبيِّنا ﷺ في هذا الموسم المبارك والوقت الفاضل أن يخصَّ كتاب الله بمزيد اعتناء، وكبير اجتهاد، فكان يتدارس القرآن مع جبريل عليه السلام، وذلك في كلِّ ليلة من لياليه، وكان يطيل القراءة في قيام رمضان ما لا يطيل في غيره، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجود النَّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الرِّيح المرسلة»[4]، وفي رواية لأحمد: «كان رسول الله ﷺ يعرض الكتاب على جبريل عليه السلام في كلِّ رمضان، فإذا أصبح رسول الله ﷺ من اللَّيلة الَّتي يعرض فيها ما يعرض أصبح وهو أجود من الرِّيح المرسلة، لا يسأل عن شيء إلاَّ أعطاه، فلمَّا كان في الشَّهر الَّذي هلك بعده عرض عليه عرضتين»[5].

(3) «التَّحرير والتَّنوير» (172/2).

(4) رواه البخاري (3220) ومسلم (2308).

(5) رواه أحمد (2042)، انظر: «الإرواء» (396/3).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ في ليلة من رمضان، فقام يصلِّي، فلمَّا كبَّر قال: «**اللَّهُ أَكْبَرُ، ذُو المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ**»، ثمَّ قرأ البقرة، ثمَّ النِّساء، ثمَّ آل عمران، لا يمرُّ بآية تخويف إلاَّ وقف عندها، ثمَّ ركع يقول: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيم**» مِثْلَ مَا كَانَ قائمًا، ثمَّ رفع رأسه فقال: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ**» مثل ما كان قائمًا، ثمَّ سجد يقول: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**» مثل ما كان قائمًا، فقال: ربِّي اغفر لي مثل ما كان قائمًا، ثمَّ سجد يقول: سبحان ربِّي الأعلى مثل ما كان قائمًا، ثمَّ رفع رأسه فقام، فما صلَّى إلاَّ ركعتين حتَّى جاء بلال فآذنه بالصَّلاة»[6].

وعلى هذا النَّحو جرى عمل السَّلف الصَّالحين وهديهم، فكانوا إذا دخل رمضان أقبلوا على كتاب الله إقبالاً عجيبًا، وضاعفوا من تلاوته والقيام به، وانقطعوا إليه واشتغلوا به عن غيره.

روى الإمام مالك في «موطَّئه» عن السَّائب ابن يزيد قال: «أمر عمر بن الخطَّاب أبيَّ ابن كعب وتميمًا الدَّاري أن يقوما للنَّاس بإحدى عشرة ركعة، قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين»[7]، حتَّى كنَّا نعتمد على العصيِّ من

(6) رواه أحمد (23399) وهو صحيح، انظر: «الإرواء» (41/2)، والحديث في «صحيح مسلم» دون ذكر رمضان.

(7) هي السُّور ذوات المائة آية أو أكثر، وهي الَّتي تلي السَّبع الطِّوال.

طول القيام، وما كنَّا ننصرف إلاَّ في فروع الفجر»[8]»[9].

وكان بعض السَّلف يختم القرآن في قيام رمضان في كلِّ ثلاث ليال، وبعضهم في كلِّ سبع، منهم قتادة، وبعضهم في كلِّ عشرة، منهم أبو رجاء العطاردي، وكانوا كذلك يكثرون من تلاوة القرآن في غير الصَّلاة، فكان قتادة يختم في كلِّ سبع دائمًا، وفي رمضان في كلِّ ثلاث، وفي العشر في كلِّ ليلة، وكان الأسود يقرأه في كلِّ ليلتين من رمضان، وكان النَّخعي يختم في كلِّ ثلاث وفي العشر الأواخر في كلِّ ليلتين؛ وكان الزُّهري إذا دخل رمضان قال: «إنَّما هو تلاوة القرآن وإطعام الطَّعام»، وكان مالك إذا دخل رمضان نَفَرَ من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف، قال عبد الرَّزَّاق: «كان سفيان الثَّوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادات وأقبل على قراءة القرآن»[10].

فهذا هو هدي أسلافنا الصَّالحين في هذا الشَّهر الكريم، فمن كان مستنًّا فَلْيَسْتَنَّ بهم؛ فهم القوم لا يشقى متَّبعهم.

فاحرص ـ أيُّها الموفَّق ـ على الإقبال على كلام ربِّك والإكثار من تلاوته، وأنت في هذا الشهر الَّذي أنزل فيه، وخصِّص بعض وقتك لحفظ ما استطعت منه، واطلب الهداية فيه.

وإيَّاك أن ترغب عنه؛ فتضلَّ وتشقى.

وقد يُشكل ما أوردته من الأخبار آنفًا مع ما جاء عن النَّبيِّ ﷺ من نهيه لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يقرأ القرآن في أقلِّ من ثلاث[11]، وقوله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلاَثٍ لَمْ يَفْقَهْهُ**»[12]؟!

والجواب على ذلك: أنَّ سُنَّة النَّبيِّ ﷺ أحقُّ أن تُتَّبع، والظَّنُّ بأئمَّة السَّلف أنَّهم لا يتعمَّدون مخالفة السُّنَّة، وإذا وقع منهم شيءٌ من ذلك فإنَّما يكون عن اجتهاد وتأويل، وهم مأجورون على كل حال.

فما ذُكر يُحتمل أنَّ النَّصَّ في ذلك لم يبلغهم، أو أنَّهم كانوا يرون جواز ذلك في الأوقات والأمكنة الفاضلة.

قال الشَّيخ الألباني: «ولا يُشكل على هذا ما ثبت عن بعض السَّلف ممَّا هو خلاف هذه السُّنَّة الصَّحيحة، فإنَّ الظَّاهر أنَّها لم تبلغهم»[13].

وقال الحافظ ابن رجب: «وإنَّما ورد النَّهي عن قراءة القرآن في أقلِّ من ثلاث على المداومة

(8) أي في أوائله.

(9) «الموطَّأ» (271).

(10) انظر هذه الأخبار وغيرها في «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي (ص236).

(11) رواه الدَّارمي وسعيد بن منصور بإسناد صحيح كما في «صفة الصَّلاة» (ص119)، وأصله في «الصَّحيحين».

(12) رواه أحمد (6535) بسند صحيح، المصدر السَّابق.

(13) «السِّلسلة الصَّحيحة» (601/5).

على ذلك، فأمَّا في الأوقات المفضَّلة كشهر رمضان، خصوصًا اللَّيالي الَّتي يُطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضَّلة كمكَّة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحبُّ الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتنامًا للزَّمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمَّة، وعليه يدلُّ عمل غيرهم»[14].

وممَّا ينبغي أن يعلم؛ أنَّ المقصود من تلاوة القرآن ليس هو تحريك اللِّسان فحسب، بل المقصود الأكبر من ذلك إنَّما هو التَّدبُّر الَّذي يورث الخشية، والخشية هي الَّتي تدفع صاحبها إلى العمل، فيمتثل أمر القرآن ويجتنب نهيه، ويقف عند حدِّه، ويكون كما كان نبيُّنا ﷺ خلقه القرآن.

وقد أرشدنا ربُّنا ـ جلَّ في علاه ـ إلى هذه الحكمة، وبيَّن لنا أنَّه من أجلها أنزل القرآن، قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص]، وقد ذمَّ سبحانه من لم يتدبَّر وَحْيَه وكلامه فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة النساء]، وبيَّن جلَّ ذكره كذلك أن سبب ضلال من ضلَّ عن الصِّراط المستقيم ترك تدبُّر القرآن فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة المؤمنون]، وأخبر تعالى أنَّ كلامه يزيد المؤمنين إيمانًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الأنفال]، وأنَّ صالحي أهل الكتاب يخرُّون عند سماعه سجَّدًا ويزيدهم خشوعًا: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الإسراء].

وقد وصف الله كلامه بأنَّه أحسن الحديث وأنَّ له تأثيرًا عجيبًا على قلوب وجوارح أهل الإيمان: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزمر].

وهذا جبير بن مطعم رضي الله عنه سمع النَّبيَّ ﷺ يقرأ آيات ـ وكان إذ ذاك مشركًا ـ فكاد قلبه أن يطير، وكان ذلك سببًا لإسلامه، فقد روى البخاري عنه أنَّه قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور، فلمَّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ

(14) «لطائف المعارف» (ص237).

﴿ ٣٧﴾ [سورة الطور]، قال: كاد قلبي أن يطير[15].

وقد توعد الله من كان قاسي القلب لا يتأثَّر بالقرآن فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الزمر]، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحشر].

فسبحان من جعل الجبال الشَّامخة العظيمة تخشع وتتصدَّع من القرآن، وإلى الله المشتكى من قلوبٍ تُتْلى عليها الآيات الكثيرة، بل السُّور الطَّويلة فلا تخشع ولا تخضع! فأيُّ خير في قلب أضحت الحجارة الصَّلبة أرقّ منه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة: 74]، لذلك عاتب الله عباده المؤمنين على عدم خشوعهم عند سماع الذِّكر وحذَّرهم من مشابهة أهل الكتاب في ذلك فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحديد].

فالمقصود ـ إذن ـ من تلاوة القرآن ظهورُ ثمرته وحصول أثره في قلوب العباد وعلى جوارحهم، وإنَّ من أعظم الخذلان أن يضيِّع المسلم هذه الحِكم الَّتي من أجلها أنزل القرآن.

(15) البخاري (4854).

قال الفضيل بن عياض: «إنما أنزل القرآن ليعمل به فاتَّخذ النَّاس قراءته عملاً»[16]، أي اقتصروا منه على مجرَّد التِّلاوة.

لذلك حريٌّ بنا أن نسأل أنفسنا: كيف يكون انتفاعنا بالقرآن؟ وماذا ينبغي لنا أن نفعل حتَّى تؤثِّر فينا آياته؟

وهذا المقصد الشَّريف لا يتسنَّى لنا إلاَّ إذا تحلَّينا بآداب تلاوة القرآن، وتخلَّقنا بأخلاق أهله، وسلكنا الأسباب المعينة على تدبُّره، ومن ذلك:

1. ترتيله وعدم الإسراع في قراءته، والحرص على حضور القلب أثناء ذلك، فإنَّ قلَّة القراءة مع التَّدبُّر خيرٌ مِنْ كثرتها مع عدمه؛ لأنَّ التَّدبُّر والعمل هو المقصود من التِّلاوة، والتِّلاوة إنَّما هي وسيلة إلى ذلك، عن أبي جمرة الضُّبَعي، قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، قال: «لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول»[17].

سئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة قراءتهما واحدة،

(16) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص37)، وكذلك ما سيأتي ذكره من الآثار فهي من مرويَّات هذا الكتاب، وهو مؤلَّف نفيس لا يستغني عنه طالب علم، وأمَّا مصنِّفه فهو أبو بكر محمَّد بن الحسين الآجرِّي، الإمام المحدِّث، القدوة شيخ الحرم الشَّريف، صاحب التَّواليف البديعة والتَّصانيف المفيدة، أشهرها كتاب «الشَّريعة»، كانت وفاته سنة (360).

(17) «أخلاق حملة القرآن» للآجري (89)

وركوعهما واحد، وسجودهما، أيُّهما أفضل؟ قال: «الَّذي قرأ البقرة، ثمَّ قرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106]».

وقال ابن مسعود: «لا تَهُذُّوه هذَّ الشّعر، ولا تنثروه نثر الدّقل[18]، وقِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السُّورة»[19].

فلا تبحث ـ يا عبد الله ـ عن آخر السُّورة فتكون كالَّذي يحمل على عاتقه عبئًا فهو يريد أن يتخلَّص منه، فإنَّ هذا ممَّا يحول بين القلب وتدبُّر القرآن، ولهذا كانت قراءة رسول الله ﷺ مفسَّرةً مُتَرَسِّلَةً حرفًا حرفًا[20]، وكان يرتِّل السُّورة حتَّى تكون أطول من أطول منها[21]، وقام ليلةً بآية يردِّدها حتَّى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة][22].

قال العلاَّمة ابن القيِّم: «فلو علم النَّاس ما في قراءة القرآن بالتَّدبُّر؛ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر حتَّى مرَّ بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مائة مرَّة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خيرٌ من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهُّم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن»[23].

فالقراءة المتأنِّيَّة أدعى للانتفاع بالقرآن الكريم لا سيما مع إلقاء السَّمع وحضور القلب وخلوِّه من العلائق المانعة من التَّدبُّر، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

2ـ معرفة معاني كلام الله ـ جلَّ وعلا ـ، قال الإمام الطَّبري: «إنِّي أعجب ممَّن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذُّ بقراءته»[24].

فاحرص ـ يا عبد الله ـ على معرفة تفسير كلام الله عزَّ وجلَّ، ولو بقراءة تفسير مختصر من التَّفاسير الَّتي تعنى ببيان معاني القرآن الكريم على طريقة أهل السُّنَّة وأتباع السَّلف الصَّالح.

والعجب ممَّن يقرأ بعض السُّور سنين

(18) الهذُّ: سرعة القراءة من غير تأمُّل، والدّقَل هو رديء التَّمر ويابسه فتراه لرداءته ويبسه لا يجتمع ويكون منثورًا.

(19) «أخلاق حملة القرآن» للآجري (1)

(20) روى أبو داود والتِّرمذي والنَّسائي عن أمِّ سلمة رضي الله عنها، نعتت قراءة النَّبيِّ ﷺ: «مفسّرة حرفًا حرفًا».
وهذا حديث ضعيف كما في «ضعيف السُّنن»، لكن صحَّ عند أحمد عنها برقم (26470) أنَّها سُئلت عن قراءته ﷺ فقرأت قراءة ترسَّلت فيها، وبرقم (26742) نعتتها: «حرفًا حرفًا قراءة بطيئة»، وقد صحَّح الأوَّل الألباني في «الإرواء» (2/61)، وقال شعيب الأرناؤوط في الثاني: «رجاله ثقات»، في تحقيقه للمسند.

(21) رواه مسلم (733).

(22) رواه النَّسائي (1010) وابن ماجه (1350) وهو حسن.

(23) «مفتاح دار السَّعادة» (1/553).

(24) ذكر ذلك عنه أبو بكر محمَّد بن مجاهد؛ كما في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (6/2453).

طويلة، وهو لا يدري معاني بعض الكلمات الَّتي تتكرَّر معه دائمًا، كالصَّمد والكوثر وغير ذلك كثير، بل إنَّ كثيرًا من المسلمين لا يعرفون معاني سورة الفاتحة، مع أنَّهم يقرؤون بها في كلِّ ركعة من صلاتهم، فلا عجب بعد ذلك أن لا يرى عليهم أثر الصَّلاة من الاستقامة والانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

3- أن تخصِّص للقرآن أفضل الأوقات وأحسنها، لا أن تقرأ القرآن فقط في الأوقات الَّتي لا تجد فيها ما تشتغل به، ومن أفضل الأوقات بعد صلاة الصُّبح وجوف اللَّيل، لِما يكون في ذلك من اجتماع الفكر وتواطؤ الهمّ، والانقطاع عن الشَّواغل، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل]، فقراءة اللَّيل أشدُّ وقعًا وأثرًا في القلب من غيرها.

4- أن تعرض نفسك على القرآن، وأن تحيا مع آياته، وذلك بأن تستحضر أنَّك المخاطب بنصوصه، وانظر إلى موقفك من حلاله وحرامه، وأمره ونهيه، فإن وجدت نفسك على خير فاحمد الله، واسأله أن يثبِّتك على ذلك ويزيدك من فضله، وإن لم تكن كذلك فعليك أن تسارع إلى مراجعة نفسك وتبادر بالتَّوبة إلى ربِّك، قال النَّبيُّ ﷺ: «**والقرآن حجَّة لك أو عليك**»[25]، وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**القُرآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحل مصدَّق، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إلى الجنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إلى النَّارِ**»[26]، ومعنى جعله أمامه أي جعله له إمامًا وقائدًا وذلك بالعمل بأوامره والوقوف عند حدوده، قال الحسن البصري: «من أحب أن يعلم ما هو فليعرض نفسه على القرآن»[27]، ويقول الإمام أبو بكر الآجري: «إذا درس القرآن فبحضور فهم وعقل، همّته إيقاع الفهم لما ألزمه الله: من اتِّباع ما أمر والانتهاء عمَّا نهى، ليس همَّته متى أختم السُّورة؟! همَّته متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتَّقين؟ متَّى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكِّلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصَّابرين؟ متى أكون من الصَّادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الرَّاجين؟ متى أزهد في الدُّنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذُّنوب؟ متى أعرف قدر النِّعم المتواترة؟ متى أشكر عليها؟ متى أعقل عن الله جلت عظمته الخطاب؟ متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهد في الله عَزَّوَجَلَّ حقَّ الجهاد؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغضُّ طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحيي من الله حقَّ الحياء؟ متى أشتغل بعيبي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسب نفسي؟ متى أتزوَّد ليوم معادي؟ متى

(25) رواه مسلم (223).

(26) رواه ابن حبَّان والطبراني في «الكبير»، وهو صحيح كما في «التَّعليقات الحسان» (124)، ومعنى ماحل أي مجادل.

(27) «أخلاق حملة القرآن» للآجري (4).

أكون عن الله راضيًا؟ متى أكون بالله واثقًا؟ متى أكون بزجر القرآن متَّعظًا؟ متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟ متى أحبُّ ما أحبَّ؟ متى أبغض ما أبغض؟ متى أنصح لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أملي؟ متى أتأهَّب ليوم موتي وقد غيِّب عنِّي أجلي؟ متى أعمر قبري؟ متى أفكِّر في الموقف وشدَّته؟ متى أفكِّر في خلوتي مع ربِّي؟ متى أفكِّر في المنقلب؟ متى أحذر ممَّا حذَّرني منه ربِّي؟ من نارٍ حرُّها شديد، وقعرها بعيد، وغمها طويل، لا يموت أهلها فيستريحوا، ولا تُقال عثرتهم، ولا ترحم عبرتهم، طعامهم الزَّقُّوم، وشرابهم الحميم: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: 56]، ندموا حيث لا ينفعهم النَّدم، وعضُّوا على الأيدي أسفًا على تقصيرهم في طاعة الله وركوبهم لمعاصي الله، فقال منهم قائل: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24)﴾ [سورة الفجر]، وقال قائل آخر: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [سورة المؤمنون]، وقال قائل: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]، وقال قائل: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28)﴾ [سورة الفرقان]، وقالت فرقة منهم ووجوههم تتقلَّب في أنواع من العذاب فقالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (66)﴾ [سورة الأحزاب].

فهذه النَّار يا معشر المسلمين! يا حملة القرآن، حذَّرها الله المؤمنين في غير موضع من كتابه، رحمة منه للمؤمنين، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)﴾ [سورة التحريم]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131)﴾ [سورة آل عمران]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)﴾ [سورة الحشر]، ثمَّ حذَّر المؤمنين أن يغفلوا عمَّا فرض عليهم وما عهده إليهم ألا يضيِّعوه، وأن يحفظوا ما استرعاهم من حدوده، ولا يكونوا كغيرهم ممَّن فسق عن أمره، فعذَّبهم بأنواع العذاب، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19)﴾ [سورة الحشر]، ثمَّ أعلم المؤمنين أنَّه لا يستوي أصحاب النَّار وأصحاب الجنَّة فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)﴾ [سورة الحشر].

فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح منه، فما حذَّره مولاه حذره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصِّفة فقد تلاه حقَّ تلاوته، ورعاه حقَّ رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحرزًا، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه

ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلّ خير في الدُّنيا وفي الآخرة»[28].

5. تجويد القرآن وتحسين الصَّوت به، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [سورة المزمل]، ولا يكون ذلك إلاَّ بمعرفة أحكام علم التَّجويد وقواعده، فيجب على المسلم أن يأخذ الضَّروريَّ منه حتَّى يستقيم لسانه بتلاوة كلام ربِّه، وعليه كذلك أن يزيِّن صوته بالقرآن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرْآنِ**»[29].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**زَيِّنُوا القُرْآنَ بأَصْوَاتِكُمْ فَإِنَّ الصَّوْتَ الحَسَنَ يَزِيدُ القُرْآنَ حُسْنًا**»[30].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بالقُرْآنِ الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللهَ**»[31].

فتزيين الصَّوت بالقرآن أنفذ للفظه إلى الأسماع، ومعانيه إلى القلوب، ولكن يكون ذلك سليقة من غير تكلُّف ولا تنطُّع، أمَّا التَّطريب والتَّمطيط والقراءة بألحان المغنِّين ومقامات الموسيقى كما يفعله بعض القرَّاء اليوم، فكلُّ ذلك بدعة منكرة، ليست من التَّغنِّي المذكور في الأحاديث السَّابقة في شيء، لذلك اشتدَّ نكيرُ أئمَّة السَّلف على من كانت قراءته كذلك.

قال ابن القاسم: «وسئل مالك عن الألحان في الصَّلاة؟ فقال: لا يعجبني؛ وأعظم القول فيه، وقال: إنَّما هذا غناء يتغنَّون به ليأخذوا عليه الدَّراهم»[32].

وقال الإمام أحمد في رواية المروزي: «القراءة بالألحان بدعة لا تسمع»[33].

6. يستحبُّ لقارئ القرآن إذا أراد أن يقرأ أن يستعمل السِّواك، فعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أمرنا بالسِّواك»، وقال ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي أَتَاهُ المَلَكُ فَقَامَ خَلْفَهُ يَسْتَمِعُ القُرْآنَ وَيَدْنُو، فَلاَ يَزَالُ يَسْتَمِعُ وَيَدْنُو حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ، فَلاَ يَقْرَأُ آيَةً إِلاَّ كَانَتْ فِي جَوْفِ المَلَكِ**»[34].

فمن حافظ على هذه الآداب كان له القرآن بإذن الله نورًا وضياءً، وهدًى وشفاءً، ورفعة وسنَاءً، في دنياه وفي أخراه، أولئك الَّذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

وصلِّ اللَّهمَّ على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

---

(28) «أخلاق حملة القرآن» (ص27 ـ 30).

(29) رواه البخاري (7527).

(30) رواه الحاكم (2178) وإسناده جيِّد على شرط مسلم، انظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» (771).

(31) رواه ابن ماجه (1339)، وصححه الألباني.

(32) «المدوَّنة» (1/288).

(33) ذكره ابن القيِّم في «زاد المعاد» (1/466).

(34) رواه البيهقي (163)، وهو صحيح كما في «السِّلسلة الصَّحيحة» (1213).

العِيدُ.. سُنَنٌ وَآدَابٌ

نجيب جلواح

العِيدُ مُنَاسَبَةٌ سَارَّةٌ، تَجْتَمِعُ فِيهَا القُلُوبُ، وَتَنْشَرِحُ لَهَا الصُّدُورُ، وَتَعُمُّ البَهْجَةُ جَمِيعَ المُسْلِمِينَ، فَيَنْسَوْنَ هُمُومَهُمْ وَغُمُومَهُمْ.

وَسُمِّيَ العِيدُ عِيدًا؛ لأَنَّ فِيهِ عَوَائِدَ الإِحْسَانِ عَلَى العِبَادِ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلأَنَّ العَادَةَ فِيهِ الفَرَحُ وَالسُّرُورُ، وَالنَّشَاطُ وَالحُبُورُ.

وَقِيلَ: سُمِّيَ كَذَلِكَ لِعَوْدِهِ وَتَكَرُّرِهِ؛ لأَنَّهُ يَعُودُ كُلَّ عَامٍ بِفَرَحٍ مُجَدَّدٍ، أَوْ تَفَاؤُلاً بِعَوْدِهِ عَلَى مَنْ أَدْرَكَهُ[1].

وَلَمَّا كَانَ العِيدُ بِهَذِهِ الأَهَمِّيَّةِ؛ سَنَّ دِينُنَا لِلْمُسْلِمِينَ عِيدَيْنِ سَنَوِيَّيْنِ هُمَا أَفْضَلُ أَعْيَادِ البَرِيَّةِ؛ فَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ: «**مَا هَذَانِ اليَوْمَانِ؟**»، قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الأَضْحَى، وَيَوْمَ الفِطْرِ**»[2].

(1) أُنْظُرْ: «لِسَانَ العَرَبِ» لابْنِ مَنْظُورٍ (315/3)، وَ«مَقَايِيسَ اللُّغَةِ» لابْنِ فَارِسٍ (183/4)، وَ«تَهْذِيبَ اللُّغَةِ» لِلأَزْهَرِيِّ (131/3).

(2) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (1136)، وَأَحْمَدُ (13622)، وَالحَاكِمُ (1091)، أُنْظُرْ: «السِّلْسِلَةَ الصَّحِيحَةَ» لِلأَلْبَانِيِّ (2021).

وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

عِيدَانِ عِنْدَ أُولِي النُّهَى لاَ ثَالِثَ
لَهُمَا لِمَنْ يَبْغِي السَّلاَمَةَ فِي غَدِ
الفِطْرُ وَالأَضْحَى وَكُلُّ زِيَادَةٍ
فِيهِمَا خُرُوجٌ عَنْ سَبِيلِ مُحَمَّدِ

وَلاَ يُشْرَعُ التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ـ فِي العِيدِ ـ بِإِحْيَاءِ لَيْلَتِهِ، لِعَدَمِ وُجُودِ مُسْتَنَدٍ صَحِيحٍ لَهُ، وَمَا رُوِيَ فِي فَضْلِ ذَلِكَ لاَ يَصِحُّ[3].

كَمَا يَحْرُمُ صَوْمُ يَوْمِ العِيدِ لِمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنْ صَوْمِهِ[4] وَعَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ التَّوْبَةُ[5].

وَقِيلَ: إِنَّ الحِكْمَةَ فِي النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ

(3) أُنْظُرْ: «زَادَ المَعَادِ» لابْنِ القَيِّمِ (212/1) وَ«فَتَاوَى اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ» (الفَتْوَى: 625) وَ«السِّلْسِلَةَ الضَّعِيفَةَ» لِلأَلْبَانِيِّ (521).

(4) رَوَى البُخَارِيُّ (1889) وَمُسْلِمٌ (1137) وَأَبُو دَاوُد(2416) ـ وَاللَّفْظُ لَهُ ـ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ: شَهِدْتُ العِيدَ مَعَ عُمَرَ، فَبَدَأَ بِالصَّلاَةِ قَبْلَ الخُطْبَةِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ صِيَامِ هَذَيْنِ اليَوْمَيْنِ، أَمَّا يَوْمُ الأَضْحَى فَتَأْكُلُونَ مِنْ لَحْمِ نُسُكِكُمْ، وَأَمَّا يَوْمُ الفِطْرِ فَفِطْرُكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ».

(5) أُنْظُرْ: «فَتَاوَى اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ» (الفَتْوَى: 12961).

العِيدَيْنِ لِمَا فِيهِ مِنَ الإِعْرَاضِ عَنْ ضِيَافَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ[6].

وَسَأَعْرِضُ ـ هُنَا ـ بَعْضَ السُّنَنِ وَالآدَابِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا المُسْلِمُ فِي العِيدَيْنِ:

1ـ الاِغْتِسَالُ:

يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَغْتَسِلَ لِلْعِيدِ؛ لأَنَّ فِيه اجْتِمَاعًا أَعْظَمَ مِنَ الاِجْتِمَاعِ الَّذِي فِي الجُمُعَةِ، وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَكِنَّهَا لاَ تَصِحُّ، وَأَحْسَنُ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى اسْتِحْبَابِ غُسْلِ العِيدِ: تِلْكَ الآثَارُ الوَارِدَةُ عَنِ السَّلَفِ رضي الله عنهم؛ فَعَنْ زَاذَانَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رضي الله عنه عَنِ الغُسْلِ؟ قَالَ: «اغْتَسِلْ كُلَّ يَوْمٍ إِنْ شِئْتَ»، فَقَالَ: لاَ، الغُسْلُ الذِي هُوَ الغُسْلُ، قَالَ: «يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَوْمَ عَرَفَةَ، وَيَوْمَ النَّحْرِ، وَيَوْمَ الفِطْرِ»[7].

وَعَنْ نَافِعٍ «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عُمَرَ كَانَ يَغْتَسِلُ يَوْمَ الفِطْرِ قَبْلَ أَنْ يَغْدُوَ إِلى المُصَلَّى»[8].

وَوَقْتُ الاِغْتِسَالِ لِلْعِيدِ يَكُونُ بَعْدَ الفَجْرِ؛ وَهُوَ قَوْلُ أَحمدَ وَرِوَايَةٌ عَنِ الشَّافِعِيِّ.

قَالَ ابن حبيب المالكي: «أفضل أوقات الغسل للعيد بعد صلاة الصُّبح، قال مالك في «المختصر»: فإن اغتسل للعيدين قبل الفجر فواسع»[9].

2 ـ التَّزَيُّنُ وَلُبْسُ الجَمِيلِ:

يُسْتَحَبُّ لُبْسُ أَجْوَدِ الثِّيَابِ لِشُهُودِ العِيدِ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْبَسُ يَوْمَ العِيدِ بُرْدَةً حَمْرَاءَ»[10].

وَيَحْرُمُ عَلَى الرِّجَالِ التَّزَيُّنُ بِكُلِّ مُحَرَّمٍ مِنَ اللِّبَاسِ؛ كَالذَّهَبِ وَالحَرِيرِ وَثَوْبِ الشُّهْرَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ لِبَاسِ الكُفَّارِ الخاص بهم أَوِ النِّسَاءِ، كَمَا لاَ يَحِلُّ لَهُم التَّزَيُّنُ بحَلْقِ لِحَاهُمْ[11].

وَاسْتَحَبَّ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ الاِغْتِسَالَ وَالتَّزَيُّنَ لِلمُسْلِمِ وَإِنْ لَمْ يَشْهَدِ المُصَلَّى؛ لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ اليَوْمِ لاَ مِنْ سُنَنِ الصَّلاَةِ، وَالمَقْصُودُ فِي هَذَا اليَوْمِ إِظْهَارُ الزِّينَةِ وَالجَمَالِ، فَاسْتُحِبَّ ذَلِكَ لِمَنْ حَضَرَ الصَّلاَةَ وَلِمَنْ لَمْ يَحْضُرْهَا[12].

كَمَا يُسْتَحَبُّ التَّنَظُّفُ بِإِزَالَةِ الشَّعْرِ، وَتَقْلِيمِ الأَظَافِرِ إِلاَّ فِي الأَضْحَى لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ، فَالوَاجِبُ عَلَيْهِ الإِمْسَاكُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ حَتَّى يَذْبَحَ أُضْحِيَتَهُ؛ لِحَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها[13].

---

(6) انْظُرْ: «نَيْلَ الأَوْطَارِ» لِلْشَّوْكَانِيِّ (262/4).

(7) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ فِي «الكُبْرَى» (5919)، وابْنُ المُنْذِرِ فِي «الأَوْسَطِ» (2112) ـ وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ ـ انْظُرْ: «إِرْوَاءَ الغَلِيلِ» لِلأَلْبَانِيِّ (175/1).

(8) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «المُوَطَّإِ» (426).

(9) «المنتقى» للباجي (316/1).

(10) أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِي فِي «المُعْجَمِ الأَوْسَطِ» (7609)، وَهُوَ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» لِلأَلْبَانِيِّ (1279).

(11) انْظُرْ: «المُغْنِي» لابْنِ قُدَامَةَ (298/2 ـ 311)، وَ«المَجْمُوعَ» لِلنَّوَوِيِّ (320/4 ـ 344).

(12) انْظُرْ: «حَاشِيَةَ رَدِّ المُحْتَارِ» لابْنِ عَابِدِينَ (268/2).

(13) رَوَى مُسْلِمٌ (1977) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ كَانَ لَهُ ذِبْحٌ يَذْبَحُهُ فَإِذَا أُهِلَّ هِلاَلُ ذِي الحِجَّةِ فَلاَ يَأْخُذَنَّ مِنْ شَعْرِهِ وَلاَ مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا حَتَّى يُضَحِّيَ».**

وَهَذَا التَّزَيُّنُ وَلُبْسُ أَجْمَلِ الثِّيَابِ خَاصٌّ بالرِّجَالِ، أَمَّا النِّسَاءُ فَلاَ يَلْبَسْنَ الثِّيَابَ الجَمِيلَةَ عِنْدَ خُرُوجِهِنَّ إلى مُصَلَّى العِيدِ، بَلْ يَحْرُمُ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَخْرُجْنَ مُتَطَيِّبَاتٍ وَمُتَبَرِّجَاتٍ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لِيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلاَتٌ**»[14]، أَيْ: غَيْرُ مُتَطَيِّبَاتٍ وَلاَ مُتَعَطِّرَاتٍ.

3ـ الأَكْلُ قَبْلَ الخُرُوجِ فِي الفِطْرِ بِخِلاَفِ الأَضْحَى:

فَالسُّنَّةُ أَنْ يَأْكُلَ المُسْلِمُ ـ يَوْمَ الفِطْرِ ـ قَبْلَ الغُدُوِّ إلى المُصَلَّى، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ فِطْرُهُ عَلَى تَمْرٍ إِنْ وَجَدَهُ؛ فَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لاَ يَغْدُو يَوْمَ الفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ»، وَقَالَ مُرَجَّى بنُ رَجَاءٍ: حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَنَسٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا**»[15]، وَفِي جَعْلِهِنَّ وِتْرًا: إِشْعَارٌ بالوَحْدَانِيَّةِ.

وَيُفْهَمُ مِنَ الحَدِيثِ: أَنَّ التَّمْرَةَ الوَاحِدَةَ لاَ تَحْصُلُ بهَا السُّنَّةُ؛ لأَنَّ «تَمَرَاتٍ»: جَمْعٌ، وَعَلَى هَذَا، فَلاَبُدَّ مِنْ ثَلاَثٍ فَأَكْثَرَ[16].

وَقِيلَ: الحِكْمَةُ فِي الأَكْلِ قَبْلَ الصَّلاَةِ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَ وُجُوبُ الفِطْرِ عَقِبَ وُجُوبِ الصَّوْمِ اسْتُحِبَّ تَعْجِيلُ الفِطْرِ مُبَادَرَةً إلى امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى، وَيُشْعِرُ بذَلِكَ اقْتِصَارُهُ عَلَى القَلِيلِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ لِغَيْرِ الامْتِثَالِ لأَكَلَ قَدْرَ الشِّبَعِ[17].

هَذَا فِي الفِطْرِ؛ **أَمَّا فِي الأَضْحَى: فَالسُّنَّةُ أَلاَّ يَأْكُلَ المُضَحِّي حَتَّى يَرْجِعَ**، فَيَأْكُلَ مِنْ ذَبِيحَتِهِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ يَخْرُجُ يَوْمَ الفِطْرِ حَتَّى يَطْعَمَ؛ وَلاَ يَطْعَمُ يَوْمَ الأَضْحَى حَتَّى يُصَلِّيَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «حَتَّى يَذْبَحَ» ـ رَوَاهَا أَحْمَدُ ـ وَفِي أُخْرَى لَهُ: «فَيَأْكُلَ مِنْ أُضْحِيَتِهِ»[18].

وَقِيلَ: الحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ إِظْهَارُ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعِبَادِ بشَرْعِيَّةِ نَحْرِ الأَضَاحِي، فَكَانَ الأَهَمُّ الابْتِدَاءَ بأَكْلِهَا شُكْرًا للهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بهِ مِنْ شَرْعِيَّةِ النَّسِيكَةِ الجَامِعَةِ لِخَيرِ الدُّنْيَا وثَوَابِ الآخِرَةِ.

وَقَدْ خَصَّصَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ اسْتِحْبَابَ تَأْخِيرِ الأَكْلِ فِي عِيدِ الأَضْحَى حَتَّى يَرْجِعَ بمَنْ لَهُ ذِبْحٌ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إذْ أَخَّرَ الفِطْرَ فِي الأَضْحَى إِنَّمَا أَكَلَ مِنْ ذَبِيحَتِهِ[19].

4ـ الخُرُوجُ إلى العِيدِ مَاشِيًا وَالعَوْدَةُ مَاشِيًا:

يُسْتَحَبُّ أَنْ يَخْرُجَ المُسْلِمُ إِلَى العِيدِ مَاشِيًا

(14) رَوَاهُ أَحْمَدُ (9645)، وَأَبُو دَاوُدَ (565) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه وَهُوَ فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ» لِلأَلْبَانِيِّ (7457).

(15) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (910).

(16) انْظُرْ: «الشَّرْحَ المُمْتِعَ» لابْنِ عُثَيْمِينَ (295/2).

(17) انْظُرْ: «فَتْحَ البَارِي» لابْنِ حَجَرٍ (03/ 374).

(18) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (542) وَابْنُ مَاجَه (1756) وَأَحْمَدُ (23042 ـ 22984)، وَالحَدِيثُ فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ» لِلأَلْبَانِيِّ (4845).

(19) انْظُرْ: «مِرْعَاةَ المَفَاتِيحِ شَرْحَ مِشْكَاةِ المَصَابِيحِ» لِلْمُبَارَكْفُورِيِّ (45/5).

ـ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ ـ وَأَنْ يَرْجِعَ كَذَلِكَ، وَهُوَ مِنَ التَّوَاضُعِ؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ إِلَى العِيدِ مَاشِيًا وَيَرْجِعُ مَاشِيًا»[20].

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ لاَ يُرْكَبَ فِي العِيدِ إلاَّ مِنْ عُذْرٍ، فَمَنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ، أَوْ كَانَ مَكَانُهُ بَعِيدًا فَرَكِبَ فَلاَ بَأْسَ.

اِسْتَحَبَّ ذَلِكَ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَجَمَاعَةٌ.

قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ: «إِنَّمَا نَحْنُ نَمْشِي وَمَكَانُنَا قَرِيبٌ وَمَنْ بَعُدَ عَلَيْهِ فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَرْكَبَ».

وَكَانَ الحَسَنُ يَأْتِي العِيدَ رَاكِبًا.

وَكَرِهَ النَّخَعِيُّ الرُّكُوبَ فِي العِيدَيْنِ وَالجُمُعَةِ[21].

5. مُخَالَفَةُ الطَّرِيقِ:

يُسْتَحَبُّ لِلمُسْلِمِ فِي العِيدَيْنِ ـ إِمَامًا كَانَ أَوْ مَأْمُومًا ـ أَنْ يَأْخُذَ فِي طَرِيقٍ، وَيَرْجِعَ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّذِي اِبْتَدَأَ فِيهِ؛ فَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ»[22].

وَالحِكْمَةُ بِالنِّسْبَةِ لِمَعْشَرِ المُسْلِمِينَ ـ مِنْ هَذَا ـ: هِيَ مُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِفِعْلِهِ ﷺ ذَلِكَ فَقَدِ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي حِكْمَتِهِ عَلَى أَقْوَالٍ، فَقِيلَ: لِلْمُرُورِ عَلَى مَنْ لَمْ يَمُرَّ عَلَيْهِ فِي الذَّهَابِ، وَرُؤْيَةِ مَنْ لَمْ يَرَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَتَسْلِيمِهِ عَلَى مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ، أَوْ لإِظْهَارِ شِعَارِ الإِسْلاَمِ، أَوْ لِيَغِيظَ المُنَافِقِينَ وَالكُفَّارَ، أَوْ لِيَشْهَدَ لَهُ الطَّرِيقَانِ.

وَقِيلَ ـ وَهُوَ الأَصَحُّ ـ: إِنَّهُ لِذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِغَيْرِهِ مِنَ الحِكَمِ الَّتِي لاَ يَخْلُو فِعْلُهُ عَنْهَا[23].

6. الخُرُوجُ إِلَى المُصَلَّى:

يُسْتَحَبُّ الخُرُوجُ إِلَى المُصَلَّى فِي العِيدَيْنِ ـ وَلَوْ اتَّسَعَ المَسْجِدُ لِلنَّاسِ ـ، وَالخُرُوجُ إِلَيْهِ تَشْرِيعٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ ضِيقِ المَسْجِدِ ـ كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ ـ؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الفِطْرِ وَالأَضْحَى إِلى المُصَلَّى»[24].

وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ صَلَّى فِي مَسْجِدِهِ ـ مَعَ فَضْلِهِ ـ صَلاَةَ عِيدٍ قَطُّ، فَقَدْ أَخْبَرَ بِأَنَّ الصَّلاَةَ فِي مَسْجِدِهِ تُضَاعَفُ[25]، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الصَّحْرَاءِ، وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ

(20) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه (1295) ـ وَهُوَ حَسَنٌ ـ، أُنْظُرْ: «إِرْوَاءَ الغَلِيلِ» لِلأَلْبَانِيِّ (636).

(21) أُنْظُرْ: «شَرْحَ البُخَارِيِّ» لابْنِ بَطَّالٍ (181/4).

(22) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (943).

(23) أُنْظُرْ: «كَشْفَ المُشْكِلِ مِنْ حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ» لابْنِ الجَوْزِيِّ (718/1)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لابْنِ حَجَرٍ (416/3)، وَ«زَادَ المَعَادِ» لابْنِ القَيِّمِ (449/1)، وَ«الشَّرْحَ المُمْتِعَ» لابْنِ عُثَيْمِينَ (132/5).

(24) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (913) وَمُسْلِمٌ (889).

(25) أَخْرَجَ البُخَارِيُّ (1133) وَمُسْلِمٌ (1394) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلاَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ»**.

عَلَى تَأَكُّدِ أَمْرِ الخُرُوجِ إلى المُصَلَّى لِصَلاَةِ العِيدَيْنِ.

وَقَدْ أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ النِّسَاءَ بالخُرُوجِ إلى العِيدَيْنِ؛ فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُ بَنَاتِهِ وَنِسَاءَهُ أَنْ يَخْرُجْنَ فِي العِيدَيْنِ»[26].

وَلَمْ يَسْتَثْنِ ﷺ - مِنْ هَذَا الأَمْرِ - الحُيَّضَ وَرَبَّاتِ الخُدُورِ؛ فَعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «**أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُخْرِجَهُنَّ فِي الفِطْرِ وَالأَضْحَى العَوَاتِقَ وَالحُيَّضَ وَذَوَاتِ الخُدُورِ؛ فَأَمَّا الحُيَّضُ: فَيَعْتَزِلْنَ الصَّلاَةَ، وَيَشْهَدْنَ الخَيْرَ وَدَعْوَةَ المُسْلِمِينَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِحْدَانَا لاَ يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ؟ قَالَ: «**لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**»[27].

فَلَمَّا أَنْ شَرَعَ ﷺ لَهُنَّ الخُرُوجَ شَرَعَ الصَّلاَةَ فِي البَرَاحِ لإِظْهَارِ شَعِيرَةِ الإِسْلاَمِ.

وَقَدْ حَافَظَ ﷺ عَلَى أَدَاءِ العِيدَيْنِ فِي المُصَلَّى وَوَاظَبَ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ ﷺ لاَ يُحَافِظُ وَلاَ يُوَاظِبُ إلاَّ عَلَى الأَفْضَلِ[28].

وَيُسْتَحَبُّ إِخْرَاجُ الصِّبْيَانِ - ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا - إلى المُصَلَّى؛ فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَابسٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ يَوْمَ فِطْرٍ أَوْ أَضْحَى فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ ثُمَّ أَتَى النِّسَاءَ فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ بالصَّدَقَةِ[29].

وَلأَنَّ فِي إِخْرَاجِهِمْ إِظْهَارًا لِشَعَائِرِ الإِسْلاَمِ، وَاكْتِمَالَ الفَرَحِ المَطْلُوبِ فِي هَذَا اليَوْمِ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُمْ لأَجْلِ الصَّلاَةِ؛ فَالحُيَّضُ أُمِرْنَ بالخُرُوجِ مع أَنَّهُنَّ لاَ يُصَلِّينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَمِنْ أَحْكَامِ صَلاَةِ العِيدِ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا جَاءَ إلى مُصَلَّى العِيدِ قَبْلَ حُضُورِ الإِمَامِ؛ فَإِنَّهُ يَجْلِسُ، وَلاَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، لأَنَّ مُصَلَّى العِيدِ لاَ يَأْخُذُ حُكْمَ المَسْجِدِ، فَلاَ تَحِيَّةَ لَهُ.

وَإِنْ أُقِيمَتْ صَلاَةُ العِيدَيْنِ فِي المَسْجِدِ فَتُصَلَّى - حِينَئِذٍ - التَّحِيَّةُ عِنْدَ الدُّخُولِ[30].

وَيُسْتَحَبُّ التَّبْكِيرُ إلى العِيدِ بَعْدَ صَلاَةِ الصُّبْحِ إلاَّ الإِمَامَ فَإِنَّهُ يَتَأَخَّرُ إلى وَقْتِ الصَّلاَةِ، لِفِعْلِهِ ﷺ ذَلِكَ؛ فَعَنِ الثَّوْرِيِّ عَنْ عُبَيْدٍ المُكْتِبِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ قَالَ: «كَانُوا يُصَلُّونَ الصُّبْحَ عَلَيْهِمْ ثِيَابُهُمْ، ثمَّ يَغْدُونَ إلى المُصَلَّى يَوْمَ الفِطْرِ»[31].

7- التَّكْبِيرُ فِي العِيدَيْنِ وَأَيَّامِ التَّشْرِيقِ:

يُسْتَحَبُّ لِلنَّاسِ إِظْهَارُ التَّكْبِيرِ فِي العِيدَيْنِ،

(26) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (2054)، وَهُوَ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» لِلأَلْبَانِيِّ (2115).

(27) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (351) ومُسْلِمٌ (890)، وَاللَّفْظُ لَهُ.

(28) أُنْظُرْ: «سُبُلَ السَّلاَمِ» لِلصَّنْعَانِيِّ (492/2)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لابْنِ حَجَرٍ (378/3)، وَ«المَدْخَلَ» لابْنِ الحَاجِّ (438/2).

(29) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (975)، وَبَوَّبَ لَهُ بقَوْلِه: «بَابُ خُرُوجِ الصِّبْيَانِ إلى المُصَلَّى»، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ - مُعَلِّقًا -: «أَيْ: فِي الأَعْيَادِ، وَإِنْ لَمْ يُصَلُّوا».

(30) أُنْظُرْ: «حَاشِيَةَ رَدِّ المُحْتَارِ» لابْنِ عَابدينَ (657/1) وَ«فَتَاوَى اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ» (الفَتْوَى: 12515)، وَهُوَ مَذْهَبُ البُخَارِيِّ، أُنْظُرْ: «فَتْحَ البَارِي» لابْنِ حَجَرٍ (130/12).

(31) أُنْظُرْ: «المُصَنَّفَ» لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ (309/3)، الأثر (5755).

وَاخْتُصَّ الفِطْرُ بمَزِيدِ تَأْكِيدٍ لِوُرُودِ النَّصِّ فِيهِ، وَالأَصْلُ فِيهِ: قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: 185]، فَيُكَبِّرُ المُسْلِمُونَ رَبَّهُمْ فِي هَذَا العِيدِ، فِي مَسَاجِدِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَطُرُقِهِمْ، مُسَافِرِينَ كَانُوا أَوْ مُقِيمِينَ - لِظَاهِرِ الآيَةِ - تَعْظِيمًا وَشُكْرًا للّٰهِ، الَّذِي هَدَاهُمْ لِهَذَا الدِّينِ القَوِيمِ، وَبَلَّغَهُمْ هَذَا الشَّهْرَ، وَأَكْمَلَ لَهُمْ العِدَّةَ، وَوَفَّقَهُمْ لأَدَاءِ مَا كَتَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ صَوْمِ رَمَضَانَ؛ فَعَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَخْرُجُ مِنَ العِيدَيْنِ رَافِعًا صَوْتَهُ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ»[32].

وَالتَّكْبِيرُ مُسْتَحَبٌّ لِلنِّسَاءِ كَمَا هُوَ لِلرِّجَالِ؛ فَقَدْ ذَكَرَ البُخَارِيُّ عَنْ مَيْمُونَةَ - زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَتْ تُكَبِّرُ يَوْمَ النَّحْرِ، وَكُنَّ النِّسَاءُ يُكَبِّرْنَ خَلْفَ أَبَانَ بن عُثْمَانَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ لَيَالِيَ التَّشْرِيقِ مَعَ الرِّجَالِ فِي المَسْجِدِ[33].

وَأَمَّا صِيغَةُ التَّكْبِيرِ، فَقَدْ ثَبَتَ تَشْفِيعُهُ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فَعَنْ أَبِي الأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ يُكَبِّرُ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ: (اللّٰهُ أَكْبَرُ، اللّٰهُ أَكْبَرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّٰهُ، وَاللّٰهُ أَكْبَرُ، اللّٰهُ أَكْبَرُ، وَلِلّٰهِ الحَمْدُ)»[34].

(32) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الإِيمَانِ» (3441) - وَهُوَ حَسَنٌ -، أُنْظُرْ: «صَحِيحَ الجَامِعِ الصَّغِيرِ» لِلأَلْبَانِيِّ (4934).

(33) ذَكَرَهُ البُخَارِيُّ - تَعْلِيقًا - بِصِيغَةِ الجَزْمِ (534/2).

(34) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «المُصَنَّفِ» (5697) - وَهُوَ صَحِيحٌ -، أُنْظُرْ: «إِرْوَاءَ الغَلِيلِ» لِلأَلْبَانِيِّ (125/3).

وَيَبْدَأُ التَّكْبِيرُ - فِي الفِطْرِ - مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ مِنْ يَوْمِ الثَّلاَثِينَ مِنْ رَمَضَانَ، أَوْ رُؤْيَةِ هِلاَلِ شَوَّالٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، وَإِكْمَالُ العِدَّةِ يَكُونُ بغُرُوبِ الشَّمْسِ مِنْ لَيْلَةِ العِيدِ، وَانْتِهَاؤُهُ إِلى أَنْ يَخْرُجَ الإِمَامُ؛ فَعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا غَدَا يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الفِطْرِ يَجْهَرُ بِالتَّكْبِيرِ حَتَّى يَأْتِيَ المُصَلَّى، ثُمَّ يُكَبِّرُ حَتَّى يَأْتِيَ الإِمَامُ»[35]، فَمُنْذُ ثُبُوتِ العِيدِ إِلى خُرُوجِ الإِمَامِ لِصَلاَةِ العِيدِ وَوَقْتُ النَّاسِ مَعْمُورٌ بِالتَّكْبِيرِ تَعْظِيمًا للّٰهِ وَشُكْرًا وَحَمْدًا.

أَمَّا وَقْتُ التَّكْبِيرِ فِي الأَضْحَى: فَمِنْ صُبْحِ يَوْمِ عَرَفَةَ إِلَى عَصْرِ آخِرِ أَيَّامِ مِنًى، وَهُوَ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ ذِي الحِجَّةِ.

وَلَمْ يَثْبُتْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثٌ، وَأَصَحُّ مَا وَرَدَ فِي هَذَا - كَمَا قَالَ الحَافِظُ -: قَوْلُ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ مِنْ صُبْحِ يَوْمِ عَرَفَةَ إِلى عَصْرِ آخِرِ أَيَّامِ مِنًى[36]؛ فَعَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ يُكَبِّرُ بَعْدَ صَلاَةِ الفَجْرِ - يَوْمَ عَرَفَةَ - إِلى صَلاَةِ العَصْرِ مِنْ آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَيُكَبِّرُ بَعْدَ العَصْرِ» رَوَاهُ البَيْهَقِي (6497) وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ طَرِيقَيْنِ

(35) أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ (180) - وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ -، أُنْظُرْ: «إِرْوَاءَ الغَلِيلِ» لِلأَلْبَانِيِّ (650).

(36) أُنْظُرْ: «فَتْحَ البَارِي» لابْنِ حَجَرٍ (536/2).

(5677 و5678) أَحَدُهُمَا جَيِّدٌ، وَرَوَى البَيْهَقِيُّ مِثْلَهُ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه (6498). وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ. وَرَوَى الحَاكِمُ عَنْهُ (1114) وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه (1115) مِثْلَهُ[37].

وَنُنَبِّهُ - هُنَا - عَلَى أَنَّ أَدَاءَ التَّكْبِيرِ يَكُونُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ حَالِهِ، فَيَذْكُرُ اللهَ عز وجل مِنْ غَيْرِ اتِّفَاقٍ مَعَ أَحَدٍ يُكَبِّرُ مَعَهُ، وَأَمَّا التَّكْبِيرُ الجَمَاعِيُّ فَمُحْدَثٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلاَ مِنْ هَدْيِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

8- لاَ سُنَّةَ لِلعِيدِ - قَبْلِيَّةً وَلاَ بَعْدِيَّةً - فِي المُصَلَّى:

لَمْ يَثْبُتْ لِصَلاَةِ العِيدَيْنِ سُنَّةٌ قَبْلَهَا وَلاَ بَعْدَهَا، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ وَلاَ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم يُصَلُّونَ شَيْئًا - قَبْلَ الصَّلاَةِ وَلاَ بَعْدَهَا - إِذَا انْتَهَوْا إِلى المُصَلَّى؛ فَعَنْ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُصَلِّ قَبْلَهُمَا وَلاَ بَعْدَهُمَا...» الحَدِيث[38].

وَفِي قَوْلِه: «لَمْ يُصَلِّ قَبْلَهُمَا وَلاَ بَعْدَهُمَا»: دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ شَرْعِيَّةِ النَّافِلَةِ قَبْلَ صَلاَةِ العِيدِ وَلاَ بَعْدَهَا؛ لأَنَّهُ إِذْ لَمْ يَفْعَل ﷺ ذَلِكَ وَلاَ أَمَرَ بِهِ،

(37) أُنْظُرْ: «إِرْوَاءَ الغَلِيلِ» لِلأَلْبَانِيِّ (3/125).

(38) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (989) وَمُسْلِمٌ (884) - وَاللَّفْظُ لَهُ - وَأَبُو دَاوُدَ (1159) وَالتِّرْمِذِيُّ (537) وَأَحْمَدُ (3153).

فَلاَ يَكُونُ مَشْرُوعًا فِي حَقِّنَا[39].

وَمِنْ جِهَةِ المَعْنَى يُقَالُ: إِنَّهُ لَوِ اشْتَغَلَ بِالنَّافِلَةِ قَبْلَ الصَّلاَةِ لاشْتَغَلَ عَنْ عِبَادَةِ الوَقْتِ وَهُوَ التَّكْبِيرُ، وَيَكُونُ بِذَلِكَ انْتَقَلَ مِنَ الفَاضِلِ إِلَى المَفْضُولِ.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى لاَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ لِلْعِيدِ سُنَّةٌ قَبْلِيَّةٌ؛ لأَنَّ مَا بَيْنَ انْقِضَاءِ صَلاَةِ الفَجْرِ إِلى حِينِ صَلاَةِ العِيدِ وَقْتٌ تَحْرُمُ فِيهِ النَّافِلَةُ.

غَيْرَ أَنَّهُ لاَ مَانِعَ مِنَ الصَّلاَةِ بَعْدَ العِيدِ، سَوَاءٌ لِلإِمَامِ أَوِ المَأْمُومِ - إِذَا فُعِلَتْ فِي البَيْتِ بَعْدَ الانْصِرَافِ مِنَ المُصَلَّى، وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لاَ يُصَلِّي قَبْلَ العِيدِ شَيْئًا؛ فَإِذَا رَجَعَ إِلى مَنْزِلِهِ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ»[40].

فَيَكُونُ المُرَادُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه السَّابِق: «وَلاَ بَعْدَهُمَا» أَيْ: فِي المُصَلَّى، وَهُوَ طَرِيقُ الجَمْعِ بَيْنَ الأَحَادِيثِ النَّافِيَةِ وَالمُثْبِتَةِ لِلتَّنَفُّلِ فِي العِيدِ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: «وَيُجْمَعُ بَيْنَ هَذَا (أَيْ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه النَّافِي) وَبَيْنَ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ النَّفْيَ إِنَّمَا وَقَعَ فِي الصَّلاَةِ فِي المُصَلَّى»[41]،

(39) أُنْظُرْ: «سُبُلَ السَّلاَمِ» لِلصَّنْعَانِيِّ (02/476).

(40) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه (1293) - وَهُوَ حَسَنٌ -، أُنْظُرْ: «إِرْوَاءَ الغَلِيلِ» لِلأَلْبَانِيِّ (03/100).

(41) «التَّلْخِيصُ الحَبِيرُ» (02/275).

وَقَالَ الأَلْبَانِيُّ نَحْوَهُ[42].

9ـ التَّهْنِئَةُ فِي العِيدِ:

تُشْرَعُ التَّهْنِئَةُ فِي العِيدِ بقَوْلِ: «تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنَّا وَمِنْكَ».

فَقَدْ أَجَازَهُ جَمْعٌ مِنْ أَهلِ العِلْمِ، لِوُرُودِهِ عَنِ السَّلَفِ ﭫ؛ قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: «وَرَوَيْنَا فِي «المَحَامِلِيَّاتِ» ـ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ ـ عَنْ جُبَيْرِ بنِ نُفَيْرٍ قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا الْتَقَوْا ـ يَوْمَ العِيدِ ـ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: (تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنَّا وَمِنْكَ)»[43].

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابنُ تَيْمِيَّةَ: «أَمَّا التَّهْنِئَةُ يَوْمَ العِيدِ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ـ إِذَا لَقِيَهُ بَعْدَ صَلاَةِ العِيدِ ـ: (تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَأَحَالَهُ اللَّهُ عَلَيْك)، وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ فَهَذَا قَدْ رُوِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَهُ، وَرَخَّصَ فِيهِ الأَئِمَّةُ كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ»[44].

هَذَا، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَى وَصِفَاتِهِ العُلاَ أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا صَلاَتَنَا وَصِيَامَنَا وَقِيَامَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَبالإِجَابَةِ جَدِيرٌ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّاهِرِينَ، وَمَنْ تَبعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلى يَوْمِ الدِّينِ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

(42) قَالَ الأَلْبَانِيُّ فِي «إِرْوَاءِ الغَلِيلِ» (100/03): «وَالتَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذَا الحَدِيثِ (أَيْ: حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ﭬ المُثْبِتِ) وَبَيْنَ الأَحَادِيثِ المُتَقَدِّمَةِ النَّافِيَةِ لِلْصَّلاَةِ بَعْدَ العِيدِ: بِأَنَّ النَّفْيَ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى الصَّلاَةِ فِي المُصَلَّى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

(43) «فَتْحُ البَارِي» (2/446).

(44) «مَجْمُوعُ الفَتَاوَى» (24/253).

فتحُ الإِلَه في نظْمِ شُرُوطِ وَأَدِلَّةِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّه

محمد طالبي
متحصل على شهادة الماجستير في العلوم الشرعية ـ وادي سوف

إنَّ كلمة التَّوحيدِ ـ لاَ إِلَهَ إِلاَ اللّهُ ـ لَيْست مُجرَّد قولٍ يُقالُ باللِّسانِ، دُون فهمٍ لمعناهُ، وعملٍ بمقتضاهُ، ولكنَّها كما قيلَ: «قُيِّدت بقيودٍ ثقالٍ، هي أثقلُ عنْدَ منْ أضلَّه اللّه منَ الجبالِ، وأشقُّ عليْهِ حملُها منَ السَّلاسِلِ والأغلالِ، أمَّا من وفَّقهُ اللّه وهداهُ ويسَّر لهُ سُبل النَّجاةِ، وجعلَ هواهُ تبعًا لِمَا جاءَ بهِ رسُولُهُ ومصطفاهُ، فهي أسهلُ عليْه وألذُّ لديْهِ من العذْبِ الزُّلالِ»[1] اهـ.

فهي إذًا كلمَةٌ أمرُها عظيمٌ وشأنُها كبيرٌ وحاجَةُ العبادِ إلى فهْمِهَا وتحقِيقِهَا والعملِ بها أعظَمُ منْ حاجَتِهم إلى الطَّعامِ والشَّرابِ، لذَا رأيْتُ أنَّه منَ النُّصحِ لنفسِي وإخوانِي أنْ أُذَكِّرَ بهذِهِ القيودِ الثِّقالِ مقْرونةً بأدِلَّتِها منَ الكتابِ والسُّنَةِ، ليتبصَّرَ أُولُو الألبابِ، ويَعبدوا ربَّهم علَى عِلْمٍ ويقينٍ بمعناهَا، وقَبولٍ وانْقيادٍ لمقتضاهَا، معَ صدْقٍ وإخْلاصٍ في قولِهَا والعملِ بهَا، كلُّ ذلك على محبَّةٍ للّهِ وبُغضٍ لِمَنْ ضاهَاهُ فيمَا لا يستَحِقُّهُ سواهُ، وقدْ جعلتُ هذهِ القيودَ وأدلَّتَها في نظْمٍ مُخْتصَرٍ، بالمقصودِ لا يُخلُّ، ولَيْس هو بطوِيلٍ فيُملُّ، فقلتُ مُستعينًا بمنْ لا يُخَيِّبُ منِ استْعانَ بهِ:

باسْــمِ القَــوِيِّ أَبْتَــدِي كَــلاَمِي	فِي نَظْمِ شَـرْطِ أَفْضَلِ الكَـلاَمِ[2]
وَهْــيَ شُــرُوطٌ عَــدُّهَا ثَمَــانِي	مُثْبَتَــةٌ فِي مُحْكَــمِ القُــرْآنِ
وفِي صَحِيــحِ سُنَّــةِ العَدْنَــانِ	صَــلَّى عَلَيْــهِ الــرَّبُّ كُــلَّ آنِ
أَوَّلُهَــا **العِلْــمُ** كَـمَا فِي الزُّخْــرُفِ[3]	وَفِي الصَّحِيــحِ[4] جَا دَلِيـلٌ فَاعْــرِفِ
عَــنْ سَـيِّدٍ يُــدْعَى بِــذِي النُّورَيْــنِ[5]	رَوَاهُ مُــسْلِــمٌ أَبُــو الحُــسَيْــنِ

(1) «مفتاح دار السلام بتحقيق شهادتي الإسلام» حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، (ص14 ـ 15).

(2) قال ﷺ: «**أَفْضَلُ الكَلاَمِ: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ واللّهُ أَكْبَرُ**» رواه أحمد (16412) وسنده صحيح.

(3) قال تعالى: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٨٦**﴾ [الزخرف: 86].

(4) قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» [مسلم (26)].

(5) وهو: أبو عبد اللّه عثمان بن عفان رضي الله عنه.



وَثَــانِيَ الــشُّــرُوطِ فِــي الآدَابِ[6]   وَهْـوَ **اليَقِيـــنُ** دُونَ مَـا ارْتِيَـابِ
وَعَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَهْ فِـي الـصَّحِيحِ   لِمُـسْلِـمٍ[7] بِلَفْظِـهِ الـصَّرِيحِ
وَثَالِــثٌ هُــوَ **الإِخْــلاَصُ** فَــادْرِ   دَلِيلُــهُ لَـدَى النِّسَــاءِ[8] يَجْــرِي
وَعَــنْ أَبِــي هُرَيْــرَهْ فِي البُخَــارِي[9]   مَن أَسْعَــدُ النَّاسِ؟ لَــدَى الغَفَّــارِ
وَرَابِــعٌ **صِــدْقٌ** لَــدَى العَــوَانِ[10]   دَلِيلُــهُ صَحَّحَــهُ الشَّيْخَــانِ[11]
عَــنْ عَالِــمٍ أَرْسَلَــهُ الرَّسُــولُ   وَهْـوَ مُعَــاذٌ[12] عِلْمُــهُ مَنْقُــولُ
وَشَــرْطٌ خَامِــسٌ هُــوَ **القَبُــولُ**   دَلِيلُــهُ فِــي نَظْمِــهِ أَقُــولُ
فِـي سُــورَةِ الـسَّجْدَةِ[13] وَاليَقْطِيـنِ[14]   كَــذَا الحَـدِيثُ صَـحَّ بِاليَقِيــنِ
عَـنِ ابْــنِ قَيْــسٍ[15] مَــاهِرِ القُــرآنِ   بِـسَنَــدٍ عَنْــهُ رَوَى الـشَّيْخَـانِ[16]
وَسَــادِسُ الــشُّـرُوطِ **الانْقِيَــادُ**   وَمِـــنْ لُقْمَــانَ[17] عِلْمُــهُ يُفَــادُ

(6) وهي سورة الحجرات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)﴾.

(7) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لاَ يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ**».

(8) قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)﴾.

(9) باب الحرص على الحديث، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «...**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**».

(10) وهي سورة البقرة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)﴾.

(11) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ**» هذا لفظ البخاري، وقوله: «**صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ**» لم يرد عند مسلم.

(12) وهو أبو عبد الرَّحمن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(13) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15)﴾.

(14) وهي سورة الصَّافَّات، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)﴾.

(15) وهو أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه.

(16) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ المَاءَ فَأَنْبَتَتْ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ المَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**» واللَّفظ للبخاري.

(17) قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22)﴾.

وَمِــــنْ حَـــدِيثٍ أَخْـــرَجَ الــشَّيْخَانِ[18] ... عَــنْ وَلَــدِ الفَــــارُوقِ[19] يَرْوِيَـــانِ

وَسَـــــابِعُ الــشُّرُوطِ فِي العُــقُودِ[20] ... مَحَبَّـــــةٌ لِــرَبِّنَـــا الـــــوَدُودِ

وَفِي حَـــدِيثِ أَنَــسِ الأَنْــصَارِي[21] ... فِي مُسْلِـمٍ وَشَيْخِـــهِ البُخَــارِي[22]

وَآخِـــرُ الـــشُّرُوطِ فِي العَـــوَانِ[23] ... كُفْـــرٌ بِكُــلِّ نِـــدٍّ لِلدَّيَّـــانِ

وَفِـــي حَــدِيثِ طَـــارِقِ بْـــنِ أَشْيَــمِ ... عَنْ سَيِّـدِ الأَنَــامِ عِنْـدَ مُسْلِـمِ[24]

قَـــدْ تَمَّــتِ الــشُّرُوطُ يَـــا إِخْــوَانِي ... مِـــنْ سُنَّـــــةِ الرَّسُـــولِ وَالقُـــرْآنِ

نَظَمَهَـــا عَبْـــدٌ فَقِيــــرٌ يَــسْــأَلُ ... رَبًّــا كَرِيمًـــا وَرَحِيمًـــــا يَعْـــدِلُ

خَتْــــمًا لَــــهُ بِأَفْــضَـلِ الكَـــلاَمِ ... وَكُــلِّ مُقْتَفٍ هُـــــدَى الإِسْـــلاَمِ

لأَنَّــــــهُ لَــــمْ يَنْتَفِــــعْ قَــائِلُهَــــا ... بِالنُّطْـــقِ إِلاَّ حَـــيْثُ يَسْتَكْمِلُهَــا

فِي قَوْلِـــهِ مُعْتَقِــــدًا مَعْنَاهَـــــا[25] ... وَفِعْلِـــــهِ وَفْقًـــا لِمُقْتَـضَاهَـــــا

كَـــذَا حَكَـــاهُ العَــــالِمُ الرَّبَّـــانِي ... فِي نَظْمِـــهِ ذَا حَـافِظُ الزَّمَـــــانِ

وَقَـــدْ سَمَّـــاهُ سُلَّـــمَ الوُصُــــولِ ... إِلَى سَمَـــا مَبَــــاحِثِ الأُصُـــــولِ

وَالحَمْــــدُ لِلْقَــــوِيِّ لاِنْتِهَـــــاءِ ... كَمَـــا سَمَّـــيْتُهُ عِنْـــدَ ابْتِـــدَاءِ

مَــعَ الــصَّلاَةِ وَالــسَّلاَمِ الــسَّرْمَــدِي ... عَلَى النَّبِيِّ الهَـــــاشِمِيِّ أَحْمَـــدِ

* * *

(18) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**» واللَّفظ للبخاري.

(19) وهو أبو عبد الرحمان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(20) وهي سورة المائدة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)**﴾.

(21) وهو أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه.

(22) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**» واللَّفظ للبخاري.

(23) وهي سورة البقرة، قال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)**﴾.

(24) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ**».

(25) معناها الَّذي دلَّت عليه يقينًا وهدت إليه دون شكٍّ ولا ريْب أنَّه: لا معبود بحقٍّ إلاَّ اللَّه.

هذهِ إخْوانِي شُروطُ كَلمةِ التَّوحيدِ، وتلْكَ أدلَّتُها منَ الكتابِ والسُّنَّةِ، عَضُّوا عليْهَا بالنَّواجذِ، واعلَمُوا: «أنَّهُ ليْس المقصُودُ حفْظ هذهِ الشُّروطِ بأدلَّتِها فقطْ بدُونِ العمَلِ والتَّطبيقِ، فكمْ من عامِيٍّ اجْتمعتْ فيهِ هذهِ الشُّروط والْتزمَهَا وعمل بها، ولوْ قيلَ لَهُ اعْددهَا لمْ يُحسِنْ، وكمْ منْ حافظٍ لألفاظِها، يجْري فيها كالسَّهمِ وتراهُ يقعُ كثيرًا فيما يُناقِضُها ويُنقصُها وهو لا يَشعرُ»[26] اهـ.

فكنْ أيُّها المسلمُ - يا مَنْ تَرجُو أنْ تَلقَى الله وهو عنْكَ راضٍ - على علمٍ بمعناها، وعملٍ بمقتضاها؛ لأنَّها مفتاحُ السَّعادةِ، وسبيلُ الفوْزِ بالجنَّةِ، والنَّجاةِ منَ النَّارِ، وتَأكَّدْ أنَّهُ لَنْ يحْصُلَ لَكَ ذَلِك حتَّى تكُونَ مُحاسِبًا لنفْسِكَ أشَدَّ مِنْ مُحاسبَةِ الشَّريكِ الشَّحيحِ لِشريكِهِ، ذَاكِرًا قولَ ربِّك جلَّ فِي عُلاَهُ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة محمد].

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ.

(26) ينظر «معارج القبول» حافظ بن أحمد الحكمي - بتصرُّف يسير.

صوم رمضان برُؤية الهلال أو بالحساب

عبد المالك رمضاني
المدينة النبوية

خلقَ اللهُ الإنسانَ وجعلَ له في هذهِ الدُّنيا أمدًا يَنتهي إليه، وأمرَه بعبادتِه فيه قبلَ انقِضائِه، وجعلَ الزَّمانَ محلاً لأداءِ عِبادتِه كما قالَ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: 62] وخلَقَ القمرَ وقدَّرَه مَنازلَ ليَعلَمَ النَّاسُ مَواقيتَ عِباداتِهم؛ كما قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: 5]، وقالَ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: 12].

قالَ ابنُ تَيمية كما في «مجموع الفتاوى» (60/15): «ولمَّا كانَت البُروجُ اثنَي عشَر، فمَتى تكرَّرَ الهلالُ اثنَي عشَر فقد انتَقلَ فيها كلِّها، فصارَ ذلكَ سَنةً كامِلةً تَعلَّقت به أحكامُ دينِنا مِن المؤَقَّتاتِ شرعًا أو شَرطًا، إمَّا بأَصلِ الشَّرعِ كالصِّيام والحجِّ، وإمَّا بسَببٍ من العبدِ كالعِدَّة ومدَّة الإيلاءِ وصَوم الكفَّارة والنَّذْر، وإمَّا بالشَّرطِ كالأجَل في الدَّيْن والخيار، والأَيمانِ وغَير ذلك».

وسهَّلَ اللهُ علَى عِباده مَعرفتَها بحيثُ يَتمكَّنُ كلُّ عابدٍ مِن أَداءِ عِبادتِه على الوَجه المَطلوبِ في زمنِه، فجعَلَ مثلاً طُلوعَ الفَجرِ الصَّادقِ علَمًا على دُخولِ وَقتِ صلاةِ الفَجر وإمساكِ الصَّائم عن المُفطِّراتِ، كما جعَلَ رُؤيةَ الهِلاَلِ وَقتَ المَغربِ عندَ انصِرام الشَّهرِ علَمًا على دُخولِ شَهرٍ جَديدٍ، كما قالَ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: 189].

ومِن هَذه العِباداتِ الَّتي عُلِّقَت برُؤيةِ الهِلاَلِ صَومُ رَمضان، فقَد أَمرَ الرَّسولُ ﷺ بالصَّوم على رُؤيتِه، فقالَ: «**صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاَثِينَ**»[1]، ونهَى عن سلوكِ غيرِ طَريقِ الرُّؤيةِ، فقالَ: «**لاَ تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الهِلاَلَ ولاَ تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ**»[2]، ونفَى النَّبيُّ ﷺ اعتِبارَ دُخولِ الشَّهرِ بالحِسابِ وكذَا خُروجه فقالَ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ ولاَ نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وهَكَذَا، يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وعِشْرِين ومَرَّةً ثَلاَثِينَ**»[3]، قالَ الذَّهبيُّ في

(1) رواه البخاري (1909)، ومسلم (2483)

(2) رواه البخاري (1906)، ومسلم (2498)

(3) رواه البخاري (1913) ومسلم (2478)

«السير» (191/14): «فنفَى عنه وعن أمَّته الكِتابةَ والحِسابَ لنُدورِ ذلكَ فيهم وقِلَّتِه، وإلاَّ فقَد كانَ فِيهم كُتَّاب الوَحي وغَير ذلكَ، وكانَ فِيهم مَن يَحسب، وقالَ تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: 12]، ومِن عِلمِهم الفَرائض، وهي تَحتاجُ إلى حِسابٍ وعَولٍ، وهو ﷺ فنفَى عن الأمَّة الحِسابَ، فعلِمنا أنَّ المَنفيَّ كَمالُ عِلم ذلكَ ودَقائقُه الَّتي يَقومُ بها القِبطُ والأَوائلُ؛ فإنَّ ذلكَ ما لم يَحتَجْ إلَيه دينُ الإسلاَم ولله الحَمدُ، فإنَّ القِبطَ عمَّقوا في الحِسابِ والجَبر وأَشياء تُضيِّعُ الزَّمان، وأَرباب الهَيئةِ تكلَّموا في سَيرِ النُّجوم والشَّمس والقمَر والكُسوفِ والقِرانِ بأُمورٍ طَويلةٍ لم يَأتِ الشَّرعُ بها، فلمَّا ذَكر ﷺ الشُّهورَ ومَعرفتَها، بيَّن أنَّ مَعرفتَها ليسَت بالطُّرقِ الَّتي يَفعلُها المُنجِّمُ وأَصحابُ التَّقويم، وأنَّ ذلكَ لاَ نَعبأُ به في دِينِنا، ولاَ نَحسب الشَّهرَ بذلكَ أبدًا، ثمَّ بيَّن أنَّ الشَّهرَ بالرُّؤيةِ فقَط، فيَكونُ تِسعًا وعِشرينَ أو بتَكملةِ ثلاَثين، فلاَ نَحتاجُ مع الثَّلاثينَ إلى تَكلُّف رُؤيةٍ».

وإذَا أَخبرَ المُسلمُ العَدلُ برُؤيتِه هلاَلَ دُخولِ الشَّهرِ قُبل منه؛ لِما رَواه أبو داود (2342) بإسنادٍ صَحيحٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما قالَ: «**تَراءَى النَّاسُ الهلالَ، فأَخبَرتُ رَسولَ الله ﷺ أنِّي رَأيتُه فصامَه وأَمرَ النَّاسَ بصيامِهِ**».

ولاَ يَزالُ المُسلِمونَ يَصومونَ على رُؤيةِ الهلاَل ويَتحرَّونَه عندَ دُخولِ الشَّهرِ وعندَ تَصرُّمِه، حتَّى ظهَرَ مَن لم يَقنَع بهَذا الأَمر النَّبويِّ وقلَّ يَقينُه فيهِ وعَظمَ شَأنُ الحِسابِ الفلَكيِّ في عَينَيه، وظنَّ أنَّ مِن لَوازم التَّحضُّر التَّخلُّصَ من الاعتِمادِ على رُؤيةِ الهلالِ في الصَّوم والعِيد، وهَذا أَمرٌ مُخالفٌ للأَحاديثِ النَّبويَّة السَّابقةِ، ومخالفٌ لفَهْم السَّلفِ الصَّالحِين، الَّذينَ عرَفوا أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَكُ مُتكلِّمًا بشيءٍ تَنسخُه الأيَّامُ، فإذَا تكلَّمَ به فثمَّ سرٌّ خافٍ على البشر ولاَبدَّ، وليسَ لهم معَه سوَى الطَّاعةِ المُطلقةِ والتَّسليم السَّالم من أيِّ اعتِراض.

روَى ابنُ عبد البرِّ في «التمهيد» (344/14) بإسنادٍ صَحيح عن محمَّد بن سيرين رحمه الله قالَ: «خَرجتُ في اليَوم الَّذي يُشكُّ فيه فلَمْ أَدخُل على أحدٍ يُؤخذُ عنه العِلمُ إلاَّ وَجدتُه يَأكلُ إلاَّ رجلاً كانَ يَحسبُ ويَأخذُ بالحساب، ولو لم يَعْلم ذلكَ كانَ خَيرًا له»، وذكرَ الذَّهبيُّ في «السير» (374/15) عند تَرجمة القاضي محمَّد ابن الحبلي أنَّه طُلبَ منه أن يُخبرَ النَّاسَ بيَوم العيدِ ويُصلِّي بهم لكن على الحِسابِ فقالَ: «أَتاه أَميرُ بَرْقة، فقالَ: غدًا العيدُ، قالَ: حتَّى نرَى الهلالَ ولاَ أُفطِّر النَّاسَ وأَتقلَّد إثمَهم! فقالَ: بهذا جاءَ كِتابُ المَنصورِ - وكانَ هذا مِن رَأي العُبَيديَّة يُفطِّرون بالحِسابِ ولاَ يَعتبرون رؤية - فلم يُرَ هلال، فأَصبحَ الأَميرُ بالطُّبول والبُنودِ وأُهبةِ العِيد، فقالَ القاضِي: لاَ أَخرجُ ولاَ أُصلِّي، فأمَر الأَميرُ رجلاً خَطَب، وكتَبَ بما جرَى إلى المَنصور، فطلبَ القاضي إليه، فأُحضرَ، فقالَ له: تَنصَّل وأَعفُو عنكَ، فامتَنعَ، فأمرَ فعلِّق في الشَّمس إلى أن ماتَ، وكان يَستغيثُ العَطش فلم يُسقَ، ثمَّ صلَبوه على خَشبةٍ، فلَعنةُ الله على الظَّالمينَ!».

ومن العَجائب أنَّ بَعضَ المُنهزمين من العَصرانيِّين أَبطلُوا الصِّيامَ على الرُّؤيةِ إذَا ادَّعى الفلكيُّون استِحالَتَها!! كما شكَّكوا في حجِّ مَن حجَّ في بَعض السَّنواتِ لأنَّ أَصحابَ المَراصدِ زَعموا عدمَ إمكانِ ولاَدةِ الهِلاَلِ في زمَن الرُّؤيةِ!! ولو سُلِّم للفلكيِّينَ قَولُهم لتُركَ كلاَمُ النَّبيِّ ﷺ السَّابق تركًا سَرمديًّا؛ لأنَّهم في كلِّ سنةٍ يَزعُمون ذلك، قالَ ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (131/25): «رأيتُ النَّاسَ في شَهرِ صَومِهم وفي غيرِه أيضًا مِنهم مَن يُصغِي إلى ما يَقولُه بعضُ جهَّالِ أَهل الحِسابِ: مِن أنَّ الهِلاَلَ يُرَى أو لاَ يُرَى، ويَبنِي على ذلكَ إمَّا في باطنِه، وإمَّا في باطنِه وظاهرِه، حتَّى بلغَني أنَّ مِن القضاةِ مَن كانَ يردُّ شَهادةَ العددِ مِن العُدولِ لقَولِ الحاسبِ الجاهلِ الكاذبِ: إنَّه يُرَى أو لاَ يُرَى، فيَكونُ ممَّن كذَّب بالحقِّ لمَّا جاءَه، وربَّما أجازَ شَهادةَ غيرِ المَرضيِّ لقَولِه! فيَكونُ هَذا الحاكمُ مِن السمَّاعِين للكذبِ، فإنَّ الآيةَ تَتناولُ حكَّامَ السُّوء كما يَدلُّ عليَه السِّياقُ حيثُ يَقولُ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة: 42]، وحكَّامُ السُّوء يَقبَلون الكذبَ ممَّن لاَ يَجوزُ قَبولُ قولِه مِن مُخبرٍ أو شاهدٍ، ويَأكلونَ السُّحتَ مِن الرِّشا وغَيرِها، ومَا أَكثرَ ما يَقترنُ هَذانِ...».

وقد قدِّر لي أن اجتمَعتُ بأَحدِ الفلكيِّين (المتعلِّمينَ بلاَ مُعلِّم كما اعترَفَ!) فجعلَ يذمُّ الاعتِمادَ على الرُّؤيةِ ويَجترئُ على العُلماءِ بل وعلى كلاَم النَّبيِّ ﷺ ويَضربُ به عرضَ الحائطِ مُعتمِدًا على أَوهام حِساباتِه في غُرورٍ بالغ، ثمَّ جاءَ بشيءٍ أَسقطَ به حجَّتَه بنفسِه فقالَ: أنا أَدلُّك على صِحَّة حِساباتِنا، فذكَر أنَّه سيَكونُ خُسوفٌ في تاريخ كذَا، وحدَّدَ لي التَّاريخ لأيَّام قَريبةٍ، ثمَّ أَرادَ اللَّهُ له الخَيبةَ فخالَف سُبحانَه مِيعادَ الخُسوفِ الَّذي وقَّتَه بيَوم! مع أنَّ شأنَ الخُسوفِ أَهوَن من شَأن الرُّؤيةِ، إضافةً إلى أنَّ اختلاَفَ أَصحابِ المَراصدِ فيما بَينِهم أَمرٌ مَعروفٌ على مدَى جَميع العُصورِ، ونحنُ نرَى اليَومَ البُلدانَ الَّتي تَعتمدُ على الحِسابِ الفلكيِّ في أَمرٍ مَريجٍ، وقد أَبدعَ الإمامُ ابنُ تَيمية في تَفنيدِ مَذاهبهم وتَبيين تَهافتِ حِساباتِهم واختلاَفِها فيما بَينَها بما يَكادُ يَجزمُ المُطَّلعُ علَيه أنَّ الرَّجلَ فلكيٌّ مُحنَّكٌ! فانظُرْه في «مجموع فتاواه» الجزء (25)، وقد ظنَّ بعضُ مَن لاَ خِبرةَ له بعمَل الحِسابِ أنَّ اختلاَفَ الفلكيِّين اختلافٌ اصطنَعَته سِياساتُ الدُّوَل، وليسَ كذلكَ لأنَّه لاَ مأربَ للسِّياسةِ في مِثل هَذا التَّخالفِ، وإنَّما الشَّأنُ في غُرورِ الفلكيِّين وعدَم تَواضع بَعضِهم لبَعض وعدَم التَّسليم للنَّبيِّ المَعصوم ﷺ، فالفلكيُّونَ جنَوا هنا على الأمَّة ثلاَثَ جِناياتٍ:

الأُولى: مُخالفتُهم أَمرَ النَّبيِّ المَعصوم ﷺ.

الثَّانية: إحداثهم خلافًا فقهيًّا ولَيسوا بفُقهاء.

الثَّالثةُ: تسبُّبُهم في تَوسيع هوَّة الخلافِ بينَ الدُّوَل المُسلمةِ، فقَد انتقلَ الخلافُ من اختلاَفٍ فقهيٍّ عمليٍّ إلى شنَآنٍ سياسيٍّ؛ إذ أَوغَلوا أنفسَهم فيما لاَ يَعنيهم وترَكوا السِّياسيِّين فيما بينَهم يَتطاحَنون، والشُّعوبَ يَتبادَلون التُّهم!

ولذَا نَعتقدُ أنَّ كلاَمَ النَّبيِّ ﷺ في اعتِبارِ رُؤيةِ الهِلاَل في الصَّوم والإفطارِ مِن قَبيل المعجزةِ؛ لأنَّه أَلغَى ﷺ العمَلَ بالحِساب في ذلكَ وتحدَّى البشريَّةَ كلَّها، ولاَ يَزالُ التَّحدِّي قائمًا إلى أن تَقومَ السَّاعةُ، وهو النَّبيُّ الأُميُّ ولكنَّه لاَ يَنطقُ عن الهوَى، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور]

وسيَظلُّ المُسلِمونَ مُختلفِين في أَداءِ هَذه العِباداتِ ما دامُوا مُخالفِين لنبيِّهم ﷺ، فهو يَقولُ: «**لاَ تَصومُوا حتَّى تَرَوا الهِلاَلَ**» وهم يُصغونَ لمَن يَقولُ: لاَ تَصومُوا على رُؤيةِ الهِلاَلِ!!!

*** أَقوالُ أَهل العِلم مِن أَصحابِ المَذاهِبِ وغَيرِهم في المَسألة:**

قالَ ابن عابدِين في «رد المحتار» (387/2) وهو عُمدةُ الحنفيَّة: «الشَّارِع لَم يَعتَمِد الحِسابَ، بَلْ أَلْغَاهُ بالكُلِّيَّةِ بقَوْلِهِ: **نَحْنُ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ ولاَ نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا، وهَكَذَا**».

وشدَّدَ الإمامُ مالكٌ رحمه الله في الصَّوم على الحِسابِ حتَّى نقَلَ عنه القرطبيُّ في «تفسيره» (293/2) أنَّه سُئلَ عن «الإمام لاَ يَصومُ لرُؤيةِ الهِلاَلِ ولاَ يُفطرُ لرُؤيتِه، وإنَّما يَصومُ ويُفطرُ على الحِسابِ، فقالَ: إنَّه لاَ يُقتدَى به ولاَ يُتبع».

وقالَ الشَّافعيُّ رحمه الله كما في «أحكام القرآن» (ص117): «فلمَّا علَّمَ اللهُ النَّاسَ أنَّ فرضَ الصَّوم علَيهم شَهرُ رمَضانَ، وكانَت الأَعاجمُ تَعدُّ الشُّهورَ بالأيَّام لاَ بالأَهلَّةِ وتَذهبُ إلى أنَّ الحِسابَ إذَا عدَّت الشُّهور بالأهلَّةِ يَختلفُ، فأَبانَ اللهُ تَعالى أنَّ الأَهلَّةَ هي المَواقيتُ للنَّاس والحجِّ، وذَكرَ الشُّهورَ فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 36]، فدلَّ على أنَّ الشُّهورَ للأهلَّةِ؛ إذ جعلَها المَواقيتَ لاَ ما ذهبَت إليه الأَعاجمُ مِن العَددِ بغَير الأهلَّةِ، ثمَّ بيَّن رَسولُ الله ذلكَ على مَا أَنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وبيَّن أنَّ الشَّهرَ تِسعٌ وعِشرونَ، يَعني أنَّ الشَّهرَ قد يَكونُ تِسعًا وعِشرينَ، وذلكَ أنَّهم قد يَكونونَ يَعلمونَ أنَّ الشَّهرَ يَكونُ ثلاَثينَ، فأَعلمَهم أنَّه قد يَكونُ تِسعًا وعِشرينَ، وأَعلمَهم أنَّ ذلكَ للأهلَّةِ»، هَذا مَذهبُ الشَّافعيِّ واضحًا في إناطةِ الصِّيام برُؤيةِ الهِلاَلِ لاَ الحِساب، ولذَلكَ قال ابن العربي في «أحكام القرآن» (118/1): «وقد زلَّ أيضًا بَعضُ أَصحابِنا فحكَى عن الشَّافعي أنَّه قالَ: يُعوَّلُ على الحِساب، وهيَ عَثرةٌ لاَ لعًا لها»[4].

وذكَرَ الحَنابلةُ أنَّ الصَّومَ على الحِسابِ لاَ يَجوزُ، وشدَّد بَعضُهم في ذلكَ حتَّى أَبطلَ صومَ مَن اعتمَدَ علَيه ولو وافقَ الصَّوابَ؛ قالَ ابن قُدامَة في «المغني» (338/4): «وكذلكَ لو بنَى على قَولِ المُنجِّمين وأَهل المَعرفةِ بالحِسابِ فوافَقَ الصَّوابَ لم يَصحَّ صَومُه وإن كثُرَت إصابتُهم؛

(4) وفي «مجمع الأمثال» للميداني (226/2): «(و لاَ لَعًا له) إذَا دعَوا علَيه وشَمَتوا به، أي لاَ أَقامَه اللهُ مِن سَقطتِه، قالَ الأَخطلُ:

فلاَ هَدَى اللهُ قَيسًا مِن ضلاَلتِهم
ولاَ لَعًا لبنِي ذَكْوانَ إذ عَثَروا»

لأنَّه ليسَ بدَليلٍ شرعيٍّ يَجوزُ البناءُ علَيه ولاَ العملُ به، فكان وُجودُه كعدمِه؛ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**صُومُوا لرُؤْيتِه، وأَفطِرُوا لرُؤْيتِه**»، وفي رواية: «**لاَ تَصُومُوا حتَّى تروه، ولاَ تُفطِروا حتَّى تَرَوه**»، وفي «الإقناع» للشربيني (235/1) فقد جاءَ فيه: «ولاَ يَجبُ الصَّومُ بقَولِ المُنجِّم ولاَ يَجوزُ... والحاسبُ ـ وهو مَن يَعتمدُ مَنازلَ القَمر بتَقدير سَيره ـ في معنَى المُنجِّم، وهو مَن يرَى أنَّ أوَّلَ الشَّهر طُلوعُ النَّجم الفلاَني، ولاَ عِبرةَ أيضًا بقَولِ مَن قالَ: أَخبرَني النَّبيُّ ﷺ في النَّوم بأنَّ اللَّيلةَ أوَّلُ رمَضان فلاَ يَصحُّ الصَّومُ به بالإِجماع لفَقدِ ضَبطِ الرَّائي لاَ للشَّكِّ في الرُّؤيةِ».

*** نَقلُ الإجماع:**

ذكَرَ غيرُ واحدٍ مِن أَهل العِلم الإجماعَ على أنَّ المَشروعَ في إثباتِ صِيام رَمضان والفِطر هو رُؤيةُ الهِلاَلِ لاَ العمَل بالحساب، فإن لم يُرَ الهِلالُ فإكمالُ عِدَّة الشَّهرِ ثلاَثين، قال ابن رشد في «بداية المجتهد» (284/1): «إنَّ العُلماءَ أَجمَعوا على أنَّ الشَّهرَ العربيَّ يَكونُ تِسعًا وعِشرينَ ويَكونُ ثلاَثينَ، وعلى أنَّ الاعتبارَ في تَحديدِ شَهرِ رمَضانَ إنَّما هو الرُّؤيةُ؛ لقَولِه علَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ: **صُومُوا لرُؤيتِه، وأَفطِروا لرُؤيتِه**».

وقالَ ابنُ تَيمية كما في «مجموع الفتاوى» (132/25): «فإنَّا نَعْلم بالاضطِرار مِن دين الإسلاَم أنَّ العملَ في رُؤيةِ هلالِ الصَّوم أو الحجِّ أو العِدَّة أو الإيلاَء أو غيرِ ذلك مِن الأَحكام المعلَّقةِ بالهِلال بخَبر الحاسب أنَّه يُرَى أو لاَ يُرَى لاَ يَجوزُ، والنُّصوصُ المُستفيضةُ عن النَّبيِّ ﷺ بذلكَ كَثيرةٌ، وقد أَجمعَ المُسلِمون علَيه، ولاَ يُعرفُ فيه خلافٌ قَديمٌ أصلاً ولاَ خلافٌ حَديثٌ، إلاَّ أنَّ بَعضَ المُتأخِّرين من المتفقِّهةِ الحادِثين بعد المائةِ الثَّالثةِ زعَم أنَّه إذا غُمَّ الهلالُ جازَ للحاسبِ أن يَعملَ في حقِّ نفسِه بالحِساب، فإن كانَ الحسابُ دلَّ على الرُّؤيةِ صامَ وإلاَّ فلاَ، وهَذا القول ـ وإن كانَ مقيَّدًا بالإغمام ومختصًّا بالحاسب ـ فهو شاذٌّ مَسبوقٌ بالإِجماع على خلافِه، فأمَّا اتِّباع ذلك في الصَّحو أو تَعليقُ عُموم الحُكم العامِّ به فما قالَه مُسلمٌ!»، وقال أيضًا (207/25): «ولاَ ريبَ أنَّه ثبتَ بالسُّنَّة الصَّحيحةِ واتِّفاقِ الصَّحابةِ أنَّه لاَ يَجوزُ الاعتمادُ على حِساب النُّجوم، كما ثبتَ عنه في «الصَّحيحَين» أنَّه قالَ: «**إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ ولاَ نَحْسُبُ، صُومُوا لِرُؤْيَتِه، وأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِه**»، والمعتمِدُ على الحِساب في الهلالِ كما أنَّه ضالٌّ في الشَّريعةِ مُبتدعٌ في الدِّين فهو مُخطئٌ في العَقل وعِلم الحِساب».

وقالَ الحافظُ ابن حَجر في «الفتح» (127/4) في شرح حديث (1913) «**إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ ولاَ نَحسبُ**»: «ولاَ يَرِد على ذلك أنَّه كانَ فِيهم مَن يَكتبُ ويَحسبُ؛ لأنَّ الكِتابةَ كانَت فيهم قَليلةً نادِرةً، والمُرادُ بالحِسابِ هُنا حِسابُ النُّجوم وتَسييرها، ولم يَكونُوا يعرفون مِن ذلكَ أيضًا إلاَّ النَّزر اليَسير، فعلَّق الحُكم بالصَّوم وغَيره بالرُّؤية لرَفْع الحَرج عنهم في مُعاناةِ حِساب التَّسيير، واستمرَّ الحُكم في الصَّوم ولو حَدَث

بعدَهم مَن يَعرفُ ذلكَ، بل ظاهرُ السِّياقِ يُشعرُ بنَفي تَعليقِ الحُكم بالحِساب أصلاً، ويُوضِّحه قولُه في الحَديثِ الماضي: «**فَإِنْ غُمَّ عَلَيكُم فأَكْمِلُوا العِدَّةَ ثلاَثِين**»، ولم يَقُلْ: فسَلُوا أَهلَ الحسابِ، والحِكمةُ فيه كونُ العددِ عند الإغماءِ يَستَوي فيه المكلَّفونَ فيَرتفعُ الاختلافُ والنِّزاعُ عنهم، وقد ذهبَ قومٌ إلى الرُّجوع إلى أَهْل التَّسيير في ذلكَ وهم الرَّوافضُ، ونقل عن بعض الفُقهاءِ مُوافقتهم، قال الباجي: وإجماعُ السَّلف الصَّالح حجَّةٌ عليهم، وقالَ ابنُ بَزيزة: وهو مذهبٌ باطلٌ؛ فقد نهَت الشَّريعةُ عن الخَوض في عِلم النُّجوم لأنَّها حَدسٌ وتَخمينٌ ليسَ فيها قطعٌ ولاَ ظنٌّ غالبٌ، مع أنَّه لو ارتبطَ الأمرُ بها لضاقَ؛ إذ لاَ يَعرفُها إلاَّ القَليلُ».

وممَّن حكَى الإجماعَ أيضًا نقلاً عن بَعض أهل العِلم ابنُ عابدين في المصدر السَّابق له.

وبعدُ، فهذه أدلَّةُ الكِتابِ والسُّنَّةِ وأَقوالُ الأئمَّةِ ونَقلُ إجماعِهم على هَذه المَسألةِ، فعلاَمَ يَختلفُ المُسلمونَ وهم أمَّةٌ واحدةٌ ودينُهم واحدٌ ومَصادرُ عُلومِهم متوفِّرةٌ لولاَ حِرمانُ التَّوفيقِ بسببِ الإعراض عن الهَدي النَّبويِّ الكَريم في مَوضوع تكلَّمَ فيه النَّبيُّ ﷺ بما يَشفِي ويَكفِي؟!

* الصَّومُ مع الجَماعة:

الكلاَمُ الذي مضَى كلُّه في أَصل الصِّيام، وأمَّا إذَا افترقَ النَّاسُ وكانَ بَعضُهم رأَى الهلالَ بنَفسِه فلم يُعمَل برُؤياه، وجَبَ علَيه أن يَصومَ مع النَّاس؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**الصَّوْمُ يَوْمَ تَصُومُونَ، والفِطْرُ يَوْمَ تُفْطِرُونَ، والأَضْحَى يَوْمَ تُضَحُّونَ**» أخرجَه الترمذي (697) عن أبي هُريرة رضي الله عنه وحسَّنَه، وأوردَه الشَّيخ الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (224) وذكرَ له شواهد منها حَديثُ عائشة مَرفوعًا ومَوقوفًا، وقالَ في المَوقوف: «أخرَجه البيهقي من طريق أبي حنيفة قالَ حدَّثني علي بن الأقمر عن مسروق قالَ: «دخلتُ على عائشةَ يومَ عرَفة، فقالَت: اسقُوا مَسروقًا سَويقًا وأَكثِروا حَلواه، قالَ: فقلتُ: إنِّي لم يَمنَعني أن أصومَ اليومَ إلاَّ أنِّي خِفتُ أن يكونَ يومَ النَّحر، فقالَت عائشةُ: النَّحرُ يومَ يَنحرُ النَّاسُ، والفِطرُ يومَ يُفطرُ النَّاسُ»، قلتُ: وهذا سنَدٌ جيِّدٌ بما قَبْله»، ثمَّ قالَ:

«**فقهُ الحَديث**:

قالَ التِّرمذي عقبَ الحَديث: «وفسَّر بعضُ أَهل العِلم هَذا الحديثَ فقالَ: إنَّما معنَى هَذا الصَّومُ والفطرُ مع الجَماعةِ وعُظْم النَّاس»، وقالَ الصَّنعاني في «سُبل السَّلام» (7/2): «فيه دليلٌ على أنَّه يُعتبرُ في ثُبوتِ العيدِ المُوافقةُ للنَّاس، وأنَّ المتفرِّدَ بمَعرفةِ يوم العيدِ بالرُّؤيةِ يَجبُ علَيه مُوافقةُ غيرِه، ويَلزمُه حُكمُهم في الصَّلاةِ والإفطارِ والأُضحيةِ»، وذكَر معنَى هَذا ابنُ القيِّم في «تهذيب السنن» (214/3) وقالَ: «وقيلَ: فيه الرَّدُّ على مَن يَقولُ إنَّ مَن عرَف طُلوعَ القمرِ بتَقديرِ حِسابِ المَنازلِ جازَ له أن يَصومَ ويُفطرَ دون مَن لم يَعْلم، وقيلَ: إنَّ الشَّاهدَ الواحدَ إذَا رأَى الهلالَ ولم يَحكم القاضِي بشَهادتِه أنَّه لاَ يكونُ هَذا له صومًا كما لم يَكُن للنَّاس».

وقالَ أبو الحَسن السِّندي في «حاشيته على

ابن ماجه» بعدَ أن ذكرَ حديثَ أبي هُريرة عند التِّرمذي: «والظَّاهرُ أنَّ مَعناه أنَّ هَذه الأمورَ ليسَ للآحادِ فيها دَخلٌ، وليس لهم التَّفردُ فيها، بل الأمرُ فيها إلى الإمام والجماعةِ، ويَجبُ على الآحادِ اتِّباعُهم للإمام والجَماعةِ، وعلى هَذا فإذَا رأَى أحدٌ الهلالَ وردَّ الإمامُ شَهادتَه يَنبغي أن لاَ يَثبتَ في حقِّه شيءٌ من هَذه الأمورِ، ويجبُ عليه أن يَتبع الجَماعةَ في ذلك».

قلتُ: وهَذا المعنَى هو المُتبادرُ مِن الحديثِ، ويؤيِّده احتجاجُ عائشةَ به على مَسروقٍ حينَ امتنعَ مِن صِيام يَوم عرَفة خَشيةَ أن يكونَ يومَ النَّحر، فبيَّنَت له أنَّه لاَ عبرةَ برأيه وأنَّ عليه اتِّباعَ الجماعةِ فقالَت: «النَّحرُ يومَ يَنحرُ النَّاسُ، والفِطرُ يومَ يُفطِرُ النَّاسُ»، قلتُ: وهَذا هو اللاَّئقُ بالشَّريعةِ السَّمحةِ الَّتي مِن غايَاتِها تَجميعُ النَّاس وتَوحيدُ صُفوفِهم، وإبعادُهم عن كلِّ ما يُفرِّق جمعَهم مِن الآراءِ الفرديَّةِ، فلاَ تَعتبرُ الشَّريعةُ رأيَ الفردِ - ولو كانَ صَوابًا في وجهةِ نظرِه - في عِبادةٍ جماعيَّةٍ كالصَّوم والتَّعييدِ وصلاةِ الجماعةِ، ألاَ ترَى أنَّ الصَّحابةَ رضي الله عنهم كان يُصلِّي بعضُهم وراءَ بعضٍ وفيهم مَن يرَى أنَّ مسَّ المرأةِ والعضوِ وخُروجَ الدَّم مِن نَواقض الوضوءِ، ومنهم مَن لاَ يرَى ذلك، ومنهم مَن يُتمُّ في السَّفر، ومنهم مَن يَقصُر، فلم يَكن اختلافُهم هذا وغيرُه ليَمنعَهم من الاجتماعِ في الصلاةِ وراءَ الإمام الواحدِ والاعتدادِ بها، وذلك لعِلمهم بأنَّ التَّفرُّق في الدِّين شرٌّ من الاختلافِ في بَعض الآراءِ، ولقد بلَغَ الأمرُ ببعضِهم في عدَم الاعتدادِ بالرَّأي المُخالفِ لرأيِ الإمام الأَعظم في المُجتمع الأَكبرِ كمِنى إلى حدِّ تركِ العَمل برأيه إطلاقًا في ذلك المُجتمع؛ فِرارًا ممَّا قد يَنتجُ من الشَّر بسببِ العمل برأيه، فروَى أبو داود (1/ 307) أنَّ عُثمانَ رضي الله عنه صلَّى بمِنًى أربعًا، فقالَ عبدُ الله ابنُ مسعودٍ مُنكِرًا عليه: صلَّيتُ مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ركعتَين، ومع أبي بكرٍ ركعتَين، ومع عُمر ركعتَين، ومع عُثمانَ صَدرًا مِن إمارتِه ثمَّ أتمَّها، ثمَّ تفرَّقَت بكم الطُّرقُ، فلَوددتُ أنَّ لي مِن أربع ركعاتٍ ركعتَين مُتقبَّلتَين، ثمَّ إنَّ ابن مسعودٍ صلَّى أربعًا! فقيلَ له: عِبتَ على عُثمانَ ثمَّ صلَّيتَ أربعًا؟! قالَ: الخلافُ شرٌّ، وسندُه صَحيحٌ، وروَى أحمد (5/ 155) نحوَ هَذا عن أبي ذرٍّ رضي الله عنهم أجمعين، فليَتأمَّل في هذا الحديثِ وفي الأثر المذكورِ أولئكَ الَّذين لاَ يَزالونَ يتفرَّقون في صَلواتهم ولاَ يَقتدونَ ببَعض أئمَّة المَساجدِ، وخاصَّة في صلاةِ الوترِ في رَمضان، بحجَّة كونِهم على خلافِ مَذهبِهم! وبعضُ أولئكَ الَّذين يَدَّعون العلمَ بالفلَك ممَّن يَصومُ ويُفطرُ وحدَه متقدِّمًا أو مُتأخِّرًا عن جَماعةِ المُسلمينَ، مُعتدًّا برأيه وعلمِه، غيرَ مُبالٍ بالخُروج عنهم، فليَتأمَّل هؤلاءِ جميعًا فيما ذكَرناه مِن العِلم لعلَّهم يَجدونَ شِفاءً لِما في نُفوسهم مِن جهلٍ وغُرورٍ، فيَكونوا صفًّا واحدًا مع إخوانِهم المُسلمين؛ فإنَّ يدَ الله مع الجماعةِ».

واللهُ المَسئول أن يَجمعَ المُسلمين على كلمةٍ سَواءٍ، والحَمدُ لله ربِّ العالمِين.

بعضُ مظاهر الجهل في الأمَّة وحاجتُها إلى الربَّانيِّين

الزواوي الملياني
وهران

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله الَّذي بلَّغ البلاغ المبين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لم تزل آياتُ الله الشَّرعيَّةُ مؤسِّسةً لحقيقة تَوارَدَتْ على تأكيدها آياتُه الكونيَّة دهرًا بعد دهر؛ في تقريرِ أنْ لا صلاح لهذا العالم إلاَّ بصلاح أهله، وأنْ لا صلاح لأهله إلاَّ بنهضة علميَّة فكريَّة يكون رائدَهم فيها علمٌ صحيحٌ لا يختلف جميعُهم في وثوقهم منه، وليس ذلك إلاَّ في علمٍ نزل من السَّماء؛ فإنَّ مدارك النَّاس متباينةٌ غايةً، ولو وُكل إلى العقول المحضة تحريرُ ما ينبغي أن تَسعَد به نفوسُهم ومجتمعاتُهم، وكذا تقريرُ ما به فلاحُهم في دِينك؛ من غير ضابطٍ يعصم عن الزَّلل؛ لحرَّكت كثيرًا منهم شهواتُهم إلى ضلالٍ ليس يحجز عنه أبدًا إلاَّ وازع الدِّين، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71].

فالعلمُ المحقَّقُ عن الله سبحانه في أحكامه، والنَّقلُ الموثَّقُ عن رسوله ﷺ في سُنَنه وأيَّامه هو الكفيل بذلك وحده لا غير، ولذلك أقول: إذا كان الجهل بأمور الدُّنيا ضارًّا بالنَّاس ضرًّا يفسد عليهم منافعهم، وملحقًا بهم ما قد يمحق بقاءهم، وما به يتوقَّف عليه وجودهم؛ فإنَّ الجهل بالدِّين أولى أن يكون ضررُه أبلغَ وفسادُه أعرضَ، فإنَّ الشَّريعة جاءت مقرِّرة أنَّ فساد الأديان شرٌّ من فساد الأبدان، بل لا قياس لحجم هذا الفساد على حجم ذاك، فإنَّ النَّوع الإنسانيَّ لا يصلح إلاَّ بالدِّين حتَّى في أمور دنياه، ولو تُرك الإنسان إلى هواه، وما يمليه عليه عقله، وظنَّ أنَّه يمكنه أن يعيش من غير دين ألبتَّة يضبط عليه شؤونه، لَمَا قدر أن يعيش مقدار ما يكون من الزَّمن بين نفَسين من أنفاسه.

بل لقد دلَّت دلائل التَّجارِب والوقائعِ، وشهدت شواهد الكون؛ أنَّ للحسنات تأثيرًا قويًّا ومحسوسًا في جلب المنافع الدُّنيويَّة، وأنَّ

فساد الكون من فساد العمل.

فإنْ قال قائل: فما دَخْلُ الحسنات فيما نحن بصدده؟!

قلت: لأنَّ الحسنات سببها العلم، والسَّيِّئات سببها الجهل، فعاد الأمر إلى العلم والجهل.

إنَّ وجودَ الجهل بين الأمَّة واستفحالَه بينها، كوجود المرض بين أعضاء المُقعد مثالاً واحدًا لا يتغايران؛ كلَّما حاول المريضُ النُّهوضَ من الأرض والقيام عنها، أخلده المرض إليها وألزمه مكانه، وهو باق كذلك ما لم يتدخَّل الطَّبيب الحكيم، مشخِّصًا الدَّاء، واصفًا الدَّواء، عساه يطرد عنه هذا الوباء الَّذي حلَّ به، وإلاَّ أتلفه وكانت به هلكته.

وهكذا الأمَّة كلَّما استفحل فيها الجهل، وكثر أهله وذويه، لاسيما الَّذين لا يدرون ولا يدرون أنَّهم لا يدرون؛ اشتدَّ بها الدَّاء، واستعصى عليها الدَّواء، ما لم يقيِّض لها الله سبحانه من العلماء الرَّبَّانيِّين والدُّعاة المصلحين؛ من يعينها على الخلاص منه.

وهذه بعض مظاهرَ للجهل الواقع في الأمَّة وبينها، لمثُلها على اختلاف أشكالها، وتنوُّع صورها، لا يجمعها ترتيب معيَّن ولا نمط مقصود، الغرض الوحيد منها بيان بعض الأدواء الَّتي يجمعها وصف الجهل، **ولست ـ أيضًا ـ أعني بالجهل هنا ما نعرِّف به نقيض العلم، ولكن هو جهل العلم، وجهل العمل على السَّواء**، وسيأتي بيان ذلك كلِّه، غير أنِّي قبل ذلك أقدِّم بما يلي:

اعلم أنَّ حاجة النَّاس إلى الخبر في الدِّين مدارها على نوعين:

ـ خبرٌ عند أهل الحديث يسمَّى: الرِّواية.

ـ وخبر عند أهل الفقه والأصول يسمَّى: الفتوى؛ وهو الدِّراية لخبر الرِّواية.

قال ابن القيِّم رحمه الله[1]: «الخبر إنْ كان عن حكم عام يتعلق بالأمة فإما أن يكون مستنده السَّماع؛ فهو الرِّواية، وإن كان مستنده الفهم من المسموع؛ فهو الفتوى..».

ومدار الشَّريعة كلِّها على هذين، ولا استقلال لأحدهما عن الآخر، فإنَّ بينهما لَحْمَةَ نَسَبٍ وَثيقةٍ، وإن كان خبر الرِّواية أصلاً لخبر الفتوى والدِّراية، ومنه اقتباس هذه وعليه بناؤها، قال الإمام الخطَّابي رحمه الله: «رأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين، وانقسموا إلى فرقتين: أصحاب حديث وأثر، وأهل فقهٍ ونظرٍ؛ وكلُّ واحدة منهما لا تتميَّز عن أختها في الحاجة، ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه في البغية والإرادة؛ لأنَّ الحديث بمنزلة الأساس الَّذي هو الأصل، والفقه بمنزلة البناء الَّذي هو له كالفرع، وكلُّ بناء لم يوضع على قاعدة وأساس؛ فهو منهار، وكلُّ أساسٍ خلا عن بناء وعمارة فهو قفْر وخراب»[2].

وما أحسن ما قال ابن الصَّلاح رحمه الله:

وينبغي أن يكون ـ يقصد المفتي ـ كالرَّاوي؛ في أنَّه لا يؤثِّر فيه قرابة وعداوة، وجرَّ نفع ودفعَ ضرٍّ؛ **لأنَّ المفتي في حكم مخبر عن الشَّرع بما لا**

(1) «بدائع الفوائد» (1/ 9).

(2) «معالم السُّنن» (1/ 3).

اختصاص له بشخص، فكان كالرَّاوي، لا كالشَّاهد»[3] اهـ.

هذا ورغم ما بين نوعي الخبر من التَّفاوت في الأهمِّيَّة، إلاَّ أنَّ الاستهانة بأيٍّ واحد منهما من الخطورة بمكان؛ ذلك أنَّ الاستهانة بخبر الرِّواية مرقاة إلى الكذب على رسول الله ﷺ، وعلى الصَّحابة والتَّابعين خطأً أو عمدًا، وأمَّا الاستهانة بخبر الفتوى؛ فمرقاة إلى التَّقوُّل على ربِّ العالمين؛ إذ إنَّه منصب التَّوقيع عنه.

قال ابن المنكدر: «العالم بين الله تعالى وخلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم»، وعن عطاء بن السَّائب قال: «أدركت أقوامًا يُسأل أحدهم عن الشَّيء فيتكلَّم وهو يرعد»[4].

فصحَّ لهذا الهول الَّذي لا يكاد يدركه كثيرون، أن لا يفرح بهذا المنصب ويهرول إليه إلاَّ متساهل، ولقد كان السَّلف رحمهم الله يستدلُّون على قلَّة علم الرَّجل بتجاسره على الفتوى؛ فعن سفيان وسحنون قالا: «أجسر النَّاس على الفتيا أقلُّهم عِلْمًا»[5].

وقلَّة العلم هنا؛ إمَّا حقيقيَّة لفراغ الرَّصيد، أو هي نسبة إلى قلَّة العلم بالله؛ الحامل على عدم الخوف منه حين السُّقوط على الفتوى، والهرولة إليها.

بل إنَّ بعض السَّلف كان يستدلُّ على جنون هذا المستعجل للفتوى والمكثر منها؛ فعن ابن مسعود وابن عبَّاس رضي الله عنهم: «مَنْ أفتى عن كلِّ ما يُسأل فهو مجنون»[6].

وهذا مرضٌ مُزْمِنٌ، مقعدٌ صاحبَه، ليس ثمَّة شيء يحجز عنه؛ إلاَّ استحكام الإخلاص من النُّفوس وانعقادها به، فإنَّه هو لا غير الوكاءُ لكلِّ نفس هَجَمَ عليها مهاجمُ الرِّياء، نسأل الله السَّلامة.

قال الصَّيْمَريّ[7]: «قلَّ مَن حرص على الفتيا وسابق إليها، وثابر عليها، إلاَّ قلَّ توفيقه، واضطرب في أموره، وإنْ كان كارهًا لذلك، غير مؤثر له ما وجد عنه مندوحة، وأحال الأمر فيه على غيره، كانت المعونة له من الله أكثر، والصَّلاح في جوابه أغلب» اهـ[8].

واعلم أنَّ الإخلاص لله تعالى هو الباعث على قول: «لا أدري»، وعدم الاكتراث بعتب النَّاس ولومهم، أو عيبهم ونقصهم، فعن الهيثم

(3) «أدب المفتي والمستفتي» للحافظ ابن الصَّلاح (ص108/ تحقيق: موفق بن عبد القادر)، ومقدِّمة «المجموع شرح المهذَّب» للإمام النَّووي (41/1).

(4) «أدب المفتي» للحافظ ابن الصَّلاح (ص76)، ومقدِّمة «المجموع» للإمام النَّووي (40/1).

(5) «أدب المفتي» للحافظ ابن الصَّلاح (ص80)، ومقدِّمة «المجموع» للإمام النَّووي (40/1).

(6) «أدب المفتي» للحافظ ابن الصَّلاح (ص77)، ومقدِّمة «المجموع» للإمام النَّووي (40/1).

(7) هو أبو القاسم عبد الواحد بن الحسين، القاضي الصيمري، شيخُ صاحب «الحاوي» (ت: بعد386هـ)، من تصانيفه: «أدب المفتي والمستفتي»، وعنه نقل كثيرًا: الحافظ ابن الصَّلاح، والإمام النَّووي في مقدِّمة «شرح المهذب». انظر: «طبقات الشَّافعية الكبرى» (339/3).

(8) «المجموع» (41/11).

ابن جميل[9] قال: «شهدت مالكًا سُئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في ثنتين وثلاثين منها: لا أدري»[10].

وعن مالك أيضًا: أنَّه ربَّما كان يسأل عن خمسين مسألة، فلا يجيب في واحدة منها، وكان يقول: «من أجاب في مسألة، فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنَّة والنَّار، وكيف خلاصه ثمَّ يجيب»[11].

وما أعجب جوابه رَحِمَهُ اللهُ، ورفع درجاته في الجنَّة، حين سُئل عن مسألة فقال: «لا أدري، فقيل: هي مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف»[12].

ولأجل كلِّ ما مضى؛ قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومحمَّد بن عجلان[13] رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أغفل العالم «لا أدري» أُصيبت مقاتله»[14].

وقد ذكر ابن الصَّلاح رَحِمَهُ اللهُ في «أدب المفتي» طرفًا يسيرًا من كلمات الأجلاء السَّابقة، وعلَّق عليها بكلامٍ جميلٍ فانظره.

فتحصَّل ممَّا مضى أنَّ صلاح العالم وسعادته من صلاح أهل هذين المنصبين، وفساده من فسادهما، ومنه تعلم السِّرَّ مِنْ وَسْمِ العلاَّمة الشَّيخ حامد بن علي العمادي[15]، رسالتَه في هذا الموضوع بعنوان: «صلاح العالَم بإفتاء العالِم».

أقول: لأجل هذا وذاك، عُقدت أبواب من كُتُبٍ، وفصولٌ مِنْ بحوث، رفعت لواء الجهاد بالكلمة؛ للذَّبِّ عن هذين المنصبين، وصدِّ الدَّاخلين إليهما والوافدين عليهما ممَّن لا رَحِمَ لهم بهما.

وفي ثَنَايَا هذا الجهاد مِنْ كشف المتشبِّع بما لم يُعطَه، والحَجْر على الحَدَثِ في الفقه، والمحدث في الدِّين، ما فيه، رفعًا للواء السُّنَّة وصيانةً لِبَيْضَةِ الشَّرع.

ثمَّ اعلم أنَّ في تعداد أهل العلم، شرائط الرَّاوي والمفتي؛ إخراجًا باللُّزوم لضروبٍ من المخبرين مِنْ كلِّ منصب من المنصبين، أخصُّ بالذِّكر الضَّرب الَّذي نحن بصدد الكلام عنه، وهو الجاهل في الدِّين؛ فإنَّه لا ينبغي أن يُخالف أحد في شدَّة فَتْكِهِ في أصول الشَّريعة وفروعها، لاسيما إذا تكلَّم بلسانٍ غير لسانه، ولبس من ثياب العلم غير لباسه، وما غرضه،

(9) هو الحافظ أبو سهل الهيثم بن جميل البغدادي، (ت: 213هـ)، انظر: «تذكرة الحفاظ» (1/363).

(10) «أدب المفتي» للحافظ ابن الصلاح (ص81)، ومقدمة «المجموع» للإمام النَّووي (1/40 ـ 41).

(11) «أدب المفتي» للحافظ ابن الصَّلاح (ص81 ـ 82)، ومقدِّمة «المجموع» للإمام النَّووي (1/40).

(12) «أدب المفتي» للحافظ ابن الصَّلاح (ص82)، ومقدِّمة «المجموع» للإمام النَّووي (1/40).

(13) محمَّد بن عجلان القرشي مولاهم، المدني، أحد الفقهاء العبَّاد (ت:148هـ)، انظر: «تذكرة الحفاظ» (1/165).

(14) «أدب المفتي» للحافظ ابن الصَّلاح (ص78 ـ 79)، ومقدِّمة «المجموع» للإمام النَّووي (1/40).

(15) هو حامد بن علي بن إبراهيم بن عماد الدين، مفتي الحنفية بدمشق، (ت1171هـ)، ترجم له المرادي في «سلك الدرر» (2/11 ـ 19)، وذكر جملةً من مؤلَّفاته الكثيرة: (منها: «صلاح العالم بإفتاء العالم»).

إلاَّ ليوجد لنفسه بين مَن لا مَيْز عنده من النَّاس، مكانة ووجاهة يصرِف بهما وجوههم إليه، وأزيدك نعته في عجالة فأقول:

هو رجلٌ هَوَى بسقوطٍ بالغٍ، وسفالة دنيئة، يتكلَّم في دين ربِّ البريَّة؛ محلِّلا محرِّمًا، مجوِّزًا مانعًا، عجَّت شرائع الرَّحمان بالشَّكوى إلى باريها من تهافته عليها، رجل يتكلَّم في الحلال والحرام، والفروج والدِّماء؛ وليس له من رصيد عِلْمٍ يصدر عنه إلاَّ مثلَّث برموذته[16]: الجيم والهاء واللاَّم، أو بحره الميِّت[17] ليغرق فيه بعدُ من يظنُّه نهر الحياة على باب الجنَّة!

هذا وصف الرَّجل، وقد خرج للدُّنيا من نفس نعته جماعة على شكله «يهجمون على الفتوى في الدِّين، وعلى التَّفسير والتَّأويل، عن غير علم، وعن غير بيِّنة، فيتقحَّمون في مآزقَ ليس لهم منها مخرج»[18].

قال الشَّافعي رحمه الله في «الرِّسالة» (رقم131):

«فالواجب على العالمين ألاَّ يقولوا إلاَّ من حيث علموا، وقد تكلَّم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلَّم فيه منه؛ لكان الإمساك أولى به، وأقرب من السَّلامة له، إن شاء الله».

وقال أيضًا (رقم178): «ومن تكلَّف ما جهل، وما لم تثبته معرفته، كانت موافقته للصَّواب إن وافقه من حيث لا يعرفه؛ غير محمودة، والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور، إذا نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصَّواب فيه» اهـ.

هذا؛ وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[19]، ومن مليح استنباط الحافظ رحمه الله قوله في تعضيد معنى الحديث: «وَشَاهِده في القُرْآن قَوْله تَعَالَى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [فاطر: 32]، وَمُنَاسَبَته لِلتَّرْجَمَةِ[20] مِنْ جِهَة أَنَّ الوَارِث قَائِم مَقَام المَوْرُوث، فَلَهُ حُكْمه فِيمَا قَامَ مَقَامه فِيهِ».

فانظر كيف انحصرت الوراثة للنُّبوَّة في العلم والعلماء؛ ليخرج الجهل والجهلاء من القسمة، إذ لا سهم للأجنبيِّ في التَّركة، إلاَّ إذا كان موصولاً بأحد سببين: إمَّا حبلُ نَسَبٍ، وإمَّا خبرُ وصيَّةٍ، فكيف وهو ليس له هاهنا من النَّسب حبلٌ ولا فَتِيلَةٌ، ولا مِنَ الوصيَّة ثُلثُها ولا أقلُّه.

فسبحان من فرَّق بين الجاهل المبتور، وبين العالم الرَّبَّانيِّ! فعقد بناصية الأوَّل الشَّرَّ الملحق بكلِّ أمَّة حلَّ فيها وبينها، وعقد بناصية الثَّاني الخير الَّذي لن تدركه أيُّ أمَّة إلاَّ من خلاله، وسبحان القائل: ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ [البقرة: 60]!

---

(16) اقتباس من مثلَّث برموذة المشهور.

(17) اقتباس من البحر الميِّت المشهور.

(18) من تعليق العلاَّمة أحمد شاكر على «جماع العلم» للشَّافعي (ص39).

(19) أبوداود (57/4)، ابن ماجه (81/1)، الدَّارمي (98/1)، البغوي في «شرح السنة» (276/1)، انظر: «صحيح الجامع الصغير» (302/5).

(20) التَّرجمة هي قول البخاري: تحت كتاب العلم: «باب العلم قبل القول والعمل... وأنَّ العلماء ورثة الأنبياء».

❖ من مظاهر الجهل في الأمّة:

ـ مظهر الاقتيات على الفتات:

في وقتٍ أعزَّ الله فيه الأمَّة الخالفة رسول الله ﷺ في علمه ودعوته، عزًّا لا تضاهيها فيه أيُّ أمَّةٍ أخرى، وذلك ببزوغ شموس نيِّرات من علماء أمثال الجبال ملؤوا الدُّنيا عِلْمًا، وبهروها أدبًا، وأزاحوا عن الأمَّة حجاب الجهل المسدول، الَّذي سحب عليها ذيوله منذ دهور، بما نشروا من علمٍ صحيح وفقهٍ رجيح، يبرز بين حين وآخر مظهر الاقتيات على الفتات، وأعني بالفتات هنا؛ ذلك الطُّفيليُّ النَّابت في غير حقله، والحدث في العلم الَّذي لم يبلغ فيه حُلُم الحلم والفهم، والفرّوج القزم الَّذي سمع الدِّيَكة تصيح؛ فصاح بصياحها يحاكيها.

وهو فتات؛ لأنَّه لا يُشبع، وليس يغني من جوع ولا يسمن، ولكنَّه فتات تناثر على مائدة العلماء؛ الملأى بأطايب العلم وأصحِّه، البعيد عن التُّخم الموجعة أو الأوباء الموقعة، فليس يعمد إلى التَّقوُّت منه رجلٌ وهو واجد من العلماء الرَّبَّانيِّين وأهل العلم الصَّالحين، من بقيته من العلم النَّافع والأدب الصَّالح ـ ما يكون في حقِّه طعام طعم، وشفاء سقم ـ إلاَّ رجل حصل بعض فساد في عقله أو نيَّته، وأفسد منه عقلاً أو نيَّة من يعرف رجلاً بأنَّه فتات فتات فتات، ثمَّ يشير للنَّاس أن يأخذوا حظَّهم منه من الاقتيات، ألا إنَّهم كانوا يقولون قديمًا ـ وقد صدقوا ـ: «**مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ ظَلَمَ**»، فمن للقطيع من تذاؤب الذِّئب؟!

بل إنَّ الذِّئاب مع ضراوتها ـ وأشدِّها ما تكون وقت جوعها ـ أقلُّ إفسادًا من هذا، بشهادة من قال: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[21].

والفتات الَّذي فسَّرته لك بالحدث صنفان: أحدهما الحدث في السِّنِّ؛ وهو الَّذي ذهبت به شرّته التَّعليميَّة بعيدًا، فسبق طوره، وتجاوز قدره، والمسكين لم يتقن بعد من آلة العلم ـ بسبب صغر السِّنِّ ـ ما يفهم به مقصود الكلام، فضلاً عن أن يناقش فيه أهله، ومثل هذا يحتاج إلى توجيه من شيخ عالمٍ حليم؛ ليصرفه بحلمه وعلمه إلى جادَّة الطَّريق، ويصبر عليه عسى أن يتداركه الله برحمة منه، ليعلم أنَّه إنَّما كان يدور في الشِّبر الأوَّل من أشبار العلم الثَّلاثة، وأنَّه لن يصل إلى درجة العالم البحَّاثة، حتَّى يقطعها شبرًا شبرًا؛ وأن لا داعي بعدُ إلى العجلة.

كما أعني بالفتات أيضًا؛ وهو الصِّنف الثَّاني؛ الحدثَ في العلم، وإن لم يكن حدثًا في السِّنِّ، فإنَّ كثيرًا من النَّاس؛ إنَّما علومهم فهارس الكتب، وأطراف الأحاديث، ولقد أشبهوا إلى حدٍّ بعيد من كان يتتبَّع غريب الحديث في عهد السَّلف، وترى أحدهم يتفنَّن في بعض عويص المسائل، وبعض كبار القضايا، الَّتي لا يتكلَّم فيها غالبًا إلاَّ الكبار من

---

(21) أخرجه أحمد (15784 و15794)، والتِّرمذي (1935) من حديث كعب بن مالك ﷺ، قال الشيخ الألباني: «صحيح».

العلماء، ثمَّ تجده يضفي على ذلك بعض الفصاحة المصطنعة ليجتذبك إليه، وتُقْبِل بوجهك عليه، حتَّى إذا كدت تصدِّق أنَّه العلاَّمة الفهَّامة، فضحه الله بما يلقيه على لسانه من تراكيب الجهل البسيط والمركَّب، وأنواع من اللَّحن الخفيِّ والجليِّ، فضحًا يدعوك إلى الشَّفقة عليه، وأن تسأل الله تعالى أن يستر عليه وعليك ما لا يزال خفيًّا من فقهه وفصاحته!!!

وليت الأمر يقف عند هذا الحدِّ، إذًا لَهَانَ الخطب شيئًا ما، ولكن تجده إذا رتَّب الله له مَن يستره بنصيحة صادقة، على حين غفلة من النَّاس، نشر بين يديه صحائف الإجازات، وصفَّ أمامه جريد الشَّهادات؛ يريد أن يقول لناصحه وللنَّاس: هؤلاء السَّبعون معمَّمًا!!!

ومن مظاهر الجهل في الأمَّة:

أنْ ينسى ـ أحيانًا ـ بعض من يفتي عامَّتها ـ على اختلاف مدارك العامَّة في الفهم ـ أنَّ الإنسانَ بشرٌ يقاد بالحِكْمة، وليس بهيمة تُقادُ بالحَكَمَة، وفرقٌ ما بين حِكْمة الحكيم، وحَكَمَة البعير؛ كفرقِ ما بين الحكيم والبعير، ودعني أزيدك إيضاحًا فأقول:

إنَّ بعض النَّاس ممَّن نشأ على الاستقامة، قد تأدَّب على طلب البراءة لدينه، فتراه يطلب من المفتي شاهد الفتوى من دليل؛ من كتاب أو سنَّة، وما غرضه من ذلك إلاَّ طلب انشراح الصَّدر، وتحصيل الطّمأنينة وأن يكون على بيِّنةٍ من دينه، بحيث لا تتخطَّفه الأهواء والمقالات يمنةً وشمالاً، وأن يرسخ اعتقاده لما سمع؛ بما لا تعمل فيه معاول الشُّبهات عملها، ولكنَّ المؤسف أن ترى هذا المفتي إذا طُلب منه الدَّليل، احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه وحملقت عيناه، في سلسلة أعراض بادية الدّلالة على أنَّ الرَّجل يتدفَّق غضبًا، فقط لأنَّ المستفتي طلب دليلا!!!

فلا تملك إزاء هذا الموقف إلاَّ أن تأسف وتحزن في زمن ترى فيه أهل الصِّناعات والعلوم الدُّنيويَّة؛ لا يعجزون عن تلقين طلاَّبهم وسائليهم ما يقدرون عليه من التَّدليل والاحتجاج بما يؤكِّدون لهم فيه ومن خلاله؛ صواب نتيجتهم وصدق مقولتهم، وهنا أقول: أيُّ القضيَّتين أحرى بطلب الدَّليل والمحاججة؟ وأيُّ المسألتين أحوج إلى المكاشفة والمساءلة؟ مسائل الدُّنيا وقضاياها، أم مسائل الدِّين وقضاياه؟

نعم، قد يكون السَّائل بليد الذِّهن، قصير الباع، بحيث يكون في محاولة إفهامه الدّلالة من الدَّليل عَبَثٌ مَحْضٌ، ولو قَعَدْتَ معه من الفجر إلى الأصيل، ولكنِّي أقول: ليس هذا من أعنيه، وإنَّما أعني من طلب البيِّنة لدينه وهو يدري ما يطلب، فإن كان في نفسه كذلك، فمن حقِّه أن يطلب.

كما وفي المقابل ـ إعطاءً لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه ـ على باغي الحجَّة وطالب البيِّنة، أن يتأدَّب في طلبها من المفتي ويتخيَّر محاسن الألفاظ في استخراجها منه، فإنَّ المفتي بشرٌ؛ يروقه الكلام الحسن، ويزعجه اللَّفظ الخشن، والذَّكيُّ من

المستفتين من يتخيَّر للفتوى ـ الَّتي يطلب دليلها ـ؛ وقتَها وجميلَ لفظها، وأختم بما ذكره النَّوويُّ في «آداب المفتي»[22]: «وينبغي للعاميِّ أن لا يطالب المفتي بالدَّليل، ولا يقل: لِمَ قلتَ؟ فإن أحبَّ أن تسكن نفسه بسماع الحجَّة طلبها في مجلس آخر، أو في ذلك المجلس بعد قبول الفتوى مجرَّدة.

وقال السَّمعاني[23]: «لا يمنع من طلب الدَّليل، وأنَّه يلزم المفتي أن يذكر له الدَّليل إن كان مقطوعًا به، ولا يلزمه إن لم يكن مقطوعًا به لافتقاره إلى اجتهاد يقصر فهم العاميِّ عنه، والصَّواب الأوَّل».

ومن مظاهر الجهل في الأمَّة:

أن ترى الرَّجل يتبوَّأ المنازل المرضيَّة عند النَّاس، من دون سعي منه إليها، ولا إشراف من النَّفس لها، أو شغفًا وكلفًا بها، ولكن لأنَّ الله تعالى رأى منه حينًا من الدَّهر؛ صدقًا معقودًا، وإخلاصًا محمودًا، وسعيًا لنشر الحقِّ منشودًا؛ رفعه بين النَّاس وجلب بقلوبهم إليه، مجازاة بالحسنى على الحسنة، وتأدية لحقِّ سعيه المحمود، ووفاءً بوعد: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ٩٦﴾ [مريم]، ولكن إذا بالرَّجل يطمئنُّ إلى مدح النَّاس وهو يتقاطر عليه، وكلماتهم المليحة وهي تنهال عليه، فترى جانب قلبه قد لان لها وعقله قد أخلد إليها، وإذا بالخذلان يدبُّ إليه خفيًّا.

فلهذا فاحذر ثمَّ احذر أن يأخذك التَّفاني في رؤية النَّفس والاعتداد بها، أو يغرَّنَّك ثناء النَّاس عليك ومدحهم لك، وطلبهم الدُّعاء منك، وتسابقهم بين يديك لقضاء حوائجك، فترى لنفسك فضلاً عليهم، فإنَّ هذا انقطاع عن الطَّريق ومنافاة لما كان عليه السَّلف من هضم النَّفس وعدم الاعتداد بها، فضلاً عن كونه كذبًا على النَّفس وفسادًا في التَّصوُّر، يورِّث رؤية المرء نفسه على غير ما هي عليه في الواقع.

من أجل هذا جاءت الآثار عن السَّلف تترى في الأمر بردع النَّفس، والتَّواضع للغير ـ في غير مذلَّة مهينة ـ مهما كان الممدوح معظَّمًا في الملَّة أو له جاه بين النَّاس.

فمن سبق له من الله سبحانه التَّوفيق؛ ساد السداد أمره، وآب إليه رشده، واستغفر وأناب، ومن سبق له غير ذلك؛ شقي في عاقبة أمره، وفسد عليه حاله، وسعى بعد هفوته وسقوطه، لا لكي يسترجع رضا ربِّه وتوفيق إلَهه، ولكن ليحرص على إبقاء عزِّه وجاهه وصحبه وسِلكه، ولو كان ذلك حامله على التَّقوُّل على الله والكذب على خلقه.

هذه كلمات مختصرات؛ هي بمثابة الإشارة المغنية ـ إن شاء الله ـ عن تطويل العبارة، فإنَّ هذا أمر؛ إنَّما برهانه: وقوعه، ودليله: وجوده وشهوده، ومن عايش الخلق بعين متدبِّرة،

---

(22) مقدِّمة «المجموع» للإمام النَّووي (57/1)، ومثله في: «أدب المفتي والمستفتي» للحافظ ابن الصَّلاح (ص173).

(23) لعلَّه: الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمَّد ابن منصور السَّمعاني (ت562هـ)، من تصانيفه «الأنساب»، انظر: «طبقات الشَّافعيَّة» للسُّبكي (180/7).

وأخرى معتبرة، شاهد من هذا أحوالاً تغنيه عن إخباره بتلك الكلمات.

وفي قصَّة المنسلخ من الآيات الَّذي ضربه الله مثلاً؛ أكبر إنذار وإعذار لمن طلب النَّجاة قبل يوم الجزاء.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف].

قال ابن كثير تحت تفسير الآية؛ وقد نقل جملة كلمات عن السَّلف في تعيين المنسلخ من هو؟: «وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدَّعوة، يقدِّمونه في الشَّدائد، بعثه نبيُّ الله موسى إلى ملِك مَدْين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام...».

ثمَّ قال رحمه الله: «وقد ورد في معنى هذه الآية حديث...: «**إنَّ مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ القُرْآنَ، حَتَّى إذا رُؤيت بهجته عليه وكان رِدْءِ الإسلام لردئًا للإسلام] اعتراه[24] إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسَّيف، ورماه بالشِّرك»، قال: [أي حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه] قلت: يا نبيَّ الله، أيُّهما أولى بالشِّرك: المرمي أو الرَّامي؟ قال: «بل الرامي»**»[25].

قال السَّعدي رحمه الله: «﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: 175] أي: انسلخ من الاتِّصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإنَّ العلم بذلك، يصير صاحبه متَّصفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدَّرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق الَّتي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللِّباس.

فلمَّا انسلخ منها أتبعه الشَّيطان، أي: تسلَّط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزَّه إلى المعاصي أزًّا.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ بعد أن كان من الرَّاشدين المرشدين.

وهذا؛ لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 176] بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدُّنيا والآخرة، فيتحصَّن من أعدائه.

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فَأَخْلَدَ إلى الأرْضِ، أي: إلى الشَّهوات السُّفليَّة، والمقاصد الدُّنيويَّة، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وترك طاعة مولاه...»[26].

قلت: فمن يأمن مكر الله بعد هذا؟!

ومن مظاهر الجهل في الأمَّة:

(24) كذا في «إتحاف الخيرة المهرة»، و«غيره» عند ابن حبَّان، و«اعتزله» عند البزَّار.

(25) حسَّنَهُ الهيثمي، وهو في «الصحيحة» (3201).

(26) «تفسير السعدي» (1/308).

ظاهرة الفصل بين طلب العلم الشَّرعيِّ وبين العمل به، وهذه الظَّاهرة من أشنع المظاهر وشرِّها؛ فإنَّ فيها خصلتين مذمومتين متلازمتين، فأمَّا الأولى فتعطيل الحكمة الَّتي من أجلها كان الحضُّ على طلب العلم والأمر به، ألا وهي طلب العمل به، فإنَّما هو وسيلة، والعمل به هو الغاية، فمن أتعب نفسه في تحصيل الوسائل وأهمل الغايات؛ كان ذلك عند العقلاء من نقصان العقل، وعند الفقهاء من فساد النِّيَّة، وأمَّا الثَّانية اللاَّزمة؛ فالتَّشبُّه ببعض شرِّ خلق الله؛ ألا وهم اليهود، فإنَّهم أكثر النَّاس تركًا للعمل عند نزول البيِّنات، أعاذنا الله من أخلاقهم، ولهذا قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «مَنْ فسد من علمائنا ففيه شبه باليهود»[27].

نعم، العلم في نفسه خصلة محمودة، وحسنة مطلوبة، وعمل صالح، بل هو أفضل القرب بعد أداء ما افْتَرَضَ الله سبحانه على العباد، فإنَّ فيه صلاحهم، وبه فلاحهم، وهو مبتدأُ كلِّ خير في دين أو دنيا، لكنَّ هذا حاصل لمن كانت نيَّته العمل به، وإجراء مقتضاه على الجوارح، قيامًا بحقِّه الشَّرعيِّ المتضمَّن في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: 19].

فإنَّ الله سبحانه طلب الاستغفار من الخطايا؛ وهو عمل، مقرونًا مع الأمر بطلب العلم؛ لتعلم أنَّ صلاح العمل من صلاح العلم، وصحَّته من صحَّته، وأنَّ ترك العمل جهل أيضًا، إذ العلم ما أورث الخشية، وحضَّ على العمل وطلب البراءة، يبيِّن هذا كلَّه تفسير السَّلف الصَّالح رضي الله عنهم للجهالة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: 17] بأنَّ كلَّ من عصى الله تعالى فهو جاهل، قال ابن كثير رحمه الله: «قال مجاهد وغير واحد: كلُّ مَنْ عصى الله فهو جاهل، حتَّى ينزع عن الذَّنب».

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل]: إنّ ربّك للذين عصوا الله **فجهلوا بركوبهم ما ركبوا من معصية الله** وسفهوا بذلك...»[28].

ولهذا قال ابن القيِّم رحمه الله تحت آية النِّساء: «والجهالة هنا؛ **جهالة العمل** وإن كان عالِمًا بالتَّحريم...»[29].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «فالفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين؛ من الجهل بالعلم إلى تحصيله اعتقادًا ومعرفةً وبصيرة، ومن **جهل العمل** إلى السَّعي النَّافع والعمل الصَّالح؛ قصدًا وسعيًا»[30].

سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك أشهد ألاَّ إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

---

(27) «اقتضاء الصراط المستقيم» (1/67).

(28) «تفسير» ابن جرير (17/316).

(29) «مدارج السالكين» (1/284).

(30) «مدارج السالكين» (1/284).



سِرّ الانتصَارات في شَهر رَمَضَان

ياسين طيبي
إمام خطيب. الجزائر.

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وَعَلى آلِه وصحبه وَمَنْ وَالاَهُ، أمَّا بَعْدُ:

فإِنَّ شهر رَمَضَان، شهر كريم مُبَارك، تَتَضَوَّعُ فِيه البركَات، وتترَنَّحُ فيهِ الخيرات، وتتباهَى فيه الانتصارات، وتتفاخَرُ فيهِ الفتوحات؛ انطلاقًا من سيِّدة الغَزوات، غزوة بَدْر الكُبرى، الَّتي كانَتْ في رمَضَان في سنة (2هـ) وَعُبورًا على فتح مكَّة العظيم، الَّذي تمَّ في رمضان سنة (8هـ)، وعُروجًا على وقعَة البُويب الَّتي حدثت في رمضان سنة (13هـ)، وجنوحًا إلى معركة القادسيَّة الَّتي التهَبتْ في رمضان سنة (14هـ) أو (15هـ)، وَذهابًا إلى معركة الزُّلاَّقة بالأندلسِ الَّتي اشتَعلَتْ في رمضان سنة (479هـ) ورجوعًا إلى حرب عين جالوت الَّتي كانت في العشر الأواخرِ من رمضان سنة (658هـ) والتفاتًا إلى معركة شقْحَب، وكانت في رمضان سنة (702هـ).

كلُّ هذه الحروب القاتلة، والمعارك الفاصلة، والملاحم القاهِرة، والانتصارات الباهِرَة، وقعت في شهر رمضان المبارك!!

فقلتُ في نفسي: لم يقع ذلك كذلكَ سدى، ولاَ هملاً.

إنَّما وقع ذلك من أجل حكمةٍ وسرٍّ؛ فوجدتني أتلمَّسُ من وراء ذلك سرًّا دفينًا، وأتحسَّسُ سببًا للانتصار مبينًا، فانقدَحَ في ذهني، وَلاحَ في نفسي أنَّ أسباب النَّصر، وأركان الظَّفر، وشرائط العزِّ، ودعائم الفوز، تتوفَّر في شهر رمضان المبارك أكثر من غيره من الأزمنة.

وأجدني مضطرًّا هُنَا لأبيِّن علاقة هذه الأسباب والأركان، بشهر رمضان من جهةٍ، وارتباطها بالنَّصر والظَّفَر من جهةٍ أخرى.

فها هي ـ أخي ـ تأتيك سِراعًا، رَافلةً في الحسن تِبَاعًا:

السَّبب الأوَّلُ ـ الاعتصام بالتَّقوى:

فقد جعل اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ التَّقوى غايةً مشرقَةً مشعَّةً، تنير للصَّائمين طريقهم، وتضيء لهمُ سبيلهُمْ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

فالتَّقوى هي الغاية المنشودة، والنِّهاية المقصودة، الَّتي يتنافسُ فيها الصَّائمون، الَّذين هم بحقيقة الصِّيام وروحِهِ متَّصفونَ.

فهذه العلَّة الغائية للصِّيام، الَّتي هي التَّقوى سبب عظيم من أسباب النَّصر، وركن كبير من أركان الظَّفر.

ومن عجيب المناسبات القرآنيَّة الَّتي أبداها بعض من أهل العلم[1]: المناسبة بين أوَّل سورة البقرة، وآخرهَا؛ فأوَّلها: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]، وآخرها: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

فمطلعها حديث عن المتَّقينَ، وخاتَمتها حديث عن النَّصْرِ المبين، وبين التَّقوى والصَّبر كما بين السَّبب والمسَبَّب، والمقدّمة والنَّتيجة، فمن أراد نتيجة النَّصر والظَّفر، فعليه بمقدّمة التَّقوى، ولهذا الحكم نظائر كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والتَّقوى في أدقِّ معانيها، هي فعل المأمور، وتركُ المحظورِ، وهو العمل الصَّالح الَّذي أمرَ به المؤمن، من أجل ذا بوَّبَ الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ بابًا عجيبًا في «صحيحه» في كتاب الجهاد والسير، فقال في ترجمة حديث رقمه (2808).

بابٌ عملٌ صَالحٌ قبل القتال، وقال أبو الدَّرداء: إنَّما تقاتلون بأعمالكُمْ.

فالتَّقوى هي الرُّكن الرَّكين، والأسُّ الثَّمين، لكلِّ من أراد الانتصار والظَّفر، وإلاَّ فَلاَ يتَعنَّ.

السَّبب الثَّاني ـ التَّمسُّك بالقرآن:

لا يخفى على مسلم العلاقة الوثيقة، والرَّابطة العميقة بين القرآن، وشهر رَمَضَان، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: 185]، فشهر رَمَضَان هو الوعاء الزَّماني لتنزُّل القرآن الكريم.

من أجلِ ذلك اهتمَّ السَّلف الصَّالح بالقرآن، في شهر رَمَضَان، وأقوالُهُمْ في ذلك مسموعة، وأحوالهم مَع القرآن معلومة، وأوبتهم إليه في رمضان معروفة.

هذه الرَّجعة الصَّادقة منهم إلى القرآن، وهذه الحالة النَّاطقة منهم بالقرآن، وهذا الاهتمام العجيب، والحرص الشديد على القرآن الكريم إيمانًا به، وتلاوةً، وسماعًا، وتدبرًا، وتأمُّلاً، وعملاً، وتحاكمًا إليه،

(1) انظر كتاب «من كل سورة فائدة» للشيخ عبد المالك رمضاني(ص36).

واستشفاءً به، وتداويًا[2]، يتمثَّل في كلِّ ذلك، سبب رئيس من أسباب النَّصْر.

واعتبر ذلك مثلاً في معركة اليمامة، الَّتي استشهد فيها ثلة من قراء القرآن، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بنُ الخطَّاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتل قد استحَرَّ[3] يوم اليمامة بقراء القرآن» الحديث رواه البخاري (4986).

فكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يعلمون عظمة القرآن في الانتصار، فكانت وصيَّتهم في هذه المعركة وصيَّةً غريبة هي قولهم: «يا أصحاب سورة البقرة بطل السِّحرُ اليومَ».

وقال الصَّحابة لسالم مولى أبي حذيفة - وهو من قراء القرآن - أتخشى أن نؤتى مِن قبلكَ فقال: «بئس حامل القرآن أنَا إذًا».

وكان أبو حذيفة رضي الله عنه يقول: «يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفِعالِ»[4].

كلُّ هذه الكلمات منهم تؤكِّد أنَّ صاحب القرآن، الَّذي يصاحبه علمًا وعملاً، هو جديرٌ بالنَّصر، وحقيقٌ بالظَّفر.

(2) لبيان أنواع هجر القرآن، ينظر كتاب «الفوائد» لابن القيم (ص118، 119).

(3) أي اشتدَّ وكثر، وهو استفعل من الحرِّ؛ لأنَّ المكروه غالبًا يضاف إلى الحرِّ، قاله ابن حجر في «الفتح» (16/9).

(4) تجد أقوالهم هذه رضي الله عنهم في «البداية والنهاية» لابن كثير (468/9 - طبعة التركي).

السَّبب الثَّالثُ - خلق الصَّبر:

يسمَّى شهر رمضان، بشهر الصَّبر، وذلك لأنَّ منع النَّفس عن ملذَّاتها، وكفَّها عن شهواتها، وحبسها عن مألوفاتها، يحتاج إلى صبرٍ، وأيُّ صبرٍ!

وبين الصَّوم والصَّبر مناسبة في اللَّفظ والمعنى، قال إمام المفسِّرين أبو جعفر محمَّد ابن جرير الطَّبري رحمه الله: «والصَّوم بعض معاني الصَّبر عندنا»[5].

وقد سمى النَّبي صلى الله عليه وسلم رمضان: «شهر الصبر»[6].

فرمضان هو المدرسة الكبيرة، الَّتي تخرِّج الصَّابرين.

والصَّبرُ هو العدَّة الحقيقيَّة، والزَّاد الأصيل للنَّصْرِ، ولذلك سألَ الصَّبرَ من الله عز وجل كلُّ من قَاتَل من المؤمنين في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [سورة البقرة].

ولقد روى الإمام أحْمَدُ (293/1) بسند صحيح، عن ابن عبَّاس رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم

(5) «تفسير الطَّبري» (617/1 - طبعة التُّركي).

(6) أخرجه أحمد (10673)، وهو صحيح.

قال: «...وأنَّ النَّصر مع الصَّبر، وأنَّ الفرج مَعَ الكَربِ، وأنَّ مع العسر يسرًا» فالنَّصر قرين الصَّبر لا محالة.

ولقد قال عمرُ رضي الله عنه لأشياخ من بني عبس: بمَ قاتلتم النَّاس؟ قالوا: بالصَّبر لم نلق قومًا إلاَّ صبرنا لهم كما صبروا لنا[7].

فالصَّبرَ الصَّبرَ يا من أراد المجد والظَّفر، وقصد الملك والنَّصر.

دببتُ للمجد والسَّاعون قد بلغوا
جهدَ النُّفوس وألقوا دونه الأزرَا
وكابدوا المجد حتَّى ملَّ أكثرهم
وعانق المجد من أوفى ومن صبرَا
لا تحسبِ المجد تمرًا أنت آكله
لن تبلغ المجد حتَّى تلعق الصَبرَا[8]

السَّبب الرَّابع ـ نعمة الاجتماع والتَّآلف:

شهر رمضان، شهرُ تظهر فيه وَحدة المسلمين، ويلوح فيه اجتماع المؤمنين، فيصومون على هلال واحدٍ، ويفطرون على هلال واحدٍ، سحورهم واحدٌ، وإفطارهم واحدٌ، ويجتمعون لصلاة التَّراويح على إمام واحدٍ...

فعوامل الاجتماع والتَّآلف في شهر رمضان كثيرةٌ جدًّا بحيث تجمعنا ولا تفرِّقنا وتعصمنا ولا تشتِّتنا، فأعظم بها من نعمة، وأكرم بها من منَّةٍ، وأكبر بها من ركيزة من ركائز الانتصار العظيمة.

وما قصَّةُ الأب الرَّحيم بأولاده عنَّا ببعيد، عندما قال لهم ناصحًا، مذكِّرًا بنعمة الاتِّفاق، محذِّرًا من نقمة الافتراق:

كونوا جميعًا يا بنيَّ إذا اعترى
خطبٌ ولا تتفرَّقوا آحادًا
تأبى الرِّماح إذا اجتمعن تكسُّرا
وإذا افترقن تكسَّرت أفرادًا

السَّبب الخامس ـ منَّة الدُّعاء:

إنَّ واسطة عِقد آيات الصِّيام في سورة البقرة، هي آية الدُّعاء.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [سورة البقرة].

فالدُّعاء له منزلة عظيمة في شهر رمضان، ومن ذلك أنَّ القنوت يستحبُّ في النِّصف الثَّاني من رمضان، دعاءً للمسلمين، ولعنًا للكافرين، وفضل الدُّعاء في ليلة القدر معروفٌ معلومٌ.

والدُّعاء هو السَّبب الخفيُّ الواصل، والرُّكن المستتر النَّافذ من أسباب النَّصر وأركانه، ففي «صحيح مسلم» (1763) من حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: حَدَّثَني عُمَر بنُ الخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إلى المُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ

(7) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (1/488).

(8) «ديوان الحماسة مع شرح المرزوقي» (2/1511).

وَأَصْحَابُهُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ القِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال]، فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالمَلاَئِكَةِ...» الحديث.

وفي ترجمة الإمام الرَّبَّاني القدوة، أبي بكر محمَّد بن واسع الأزدي (ت123هـ) من «السير» للذَّهبي (121/6): «قال الأصمعي لما صافَّ قتيبةُ بنُ مسلم للترك، وهاله أمرُهم، سأل عن محمَّد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يُبصبصُ بأصبعه نحوَ السَّماء، قال: تلك الأصبعُ أحبُّ إليَّ من مئة ألف سيف شهيرٍ وشابٍّ طرير».

هذا؛ وإنَّ التَّأمُّل في آيتين من سورة الأنفال، يجمع لك هذه الأسباب الخمس؛ بل قد يزيد عليها، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال].

فقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ يدخل فيه التَّمسُّك بالقرآن، والاعتصام بالدُّعاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ تنبيه علي تقوى الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ ظاهرٌ في الأمر بالاتِّفاق والنَّهي عن الشِّقاق.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أمرٌ بـ «ملاك ذلك كلّه، وقوامه، وأساسه، وهو الصَّبر»، كما قال ابن القيِّم ـ رحمة الله عليه ـ[9].

نذكِّر بأسباب النَّصر، وشرائط الظَّفر، عسى أن تُشحذ الهمم، وتُذكى العزائم، وتشرئبَّ الأعناق، وتتطلَّع النُّفوس لهذه الغاية القريبة البعيدة في آنٍ واحد، ألا وهي النَّصر، في زمنٍ أقلّ ما يقال فيه إنَّه زمن الذُّلِّ والهوان، والضّعة والانهزام، والتَّفرُّق والانقسام، قال في مثله أبو عبد الله القرطبي المفسِّر الإمام (ت 671): «وفي قولهم عليهم السلام: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ [البقرة: 249] الآية، تحريض على القتال، واستشعار للصَّبر، واقتداءٌ بمن صدق ربَّه.

قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؛

(9) «الفروسية» (ص506)، وله كلامٌ رقراقٌ على هذه الآية في هذا الكتاب ينبغي الوقوف عليه.

لكن الأعمال القبيحة، والنِّيَّات الفاسدة، منعت من ذلك حتَّى ينكسر العدد الكبير منَّا قدَّام اليسير من العدوِّ، كما شاهدناه غير مرَّة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاري: وقال أبو الدرداء: «إنَّما تقاتلون بأعمالكم».

وفيه مسنَدٌ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «هَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلاَّ بِضُعَفَائِكُمْ».

فالأعمال فاسدة، والضُّعفاء مهملون، والصَّبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتَّقوى زائلة!

قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: 200]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ [المائدة: 23]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة النحل]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: 40]، وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الأنفال].

فهذه أسباب النَّصر وشروطه، وهي معدومة عندنا، غير موجودة فينا، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا! بل لم يبق من الإسلام إلاَّ ذكره، ولا من الدِّين إلاَّ رسمه، لظهور الفساد، ولكثرة الطُّغيان، وقلَّة الرَّشاد، حتَّى استولى العدوُّ شرقًا وغربًا برًّا وبحرًا، وعمَّت الفتن، وعظمت المحن، ولا عاصم إلاَّ من رحم!»[10].

نعم، لا عاصم إلاَّ من رحم، ولا ناصر إلاَّ الله، فنسأله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعيد في أمَّة القرآن، انتصارات رمضان، وفتوحات رمضان، وما ذلك على الله بعزيز: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة ص].

(10) «تفسير القرطبي» (4/245).

من جوائز رمضان

حسن أيت علجت

لَقَدْ وَفَدَ علينَا ضَيْفٌ جليلٌ، وأظلَّنَا شَهْرٌ فَضِيلٌ، ألاَ وهو شهْرُ رَمَضَان، شَهْرُ القُرْآن، شَهْرُ مَغْفِرَةِ الذُّنُوب والعِتْقِ من النِّيران.

فَحَرِيٌّ بالمسْلِمِ أنْ يُعِدَّ لِهَذَا الضَّيْفِ الكريمِ الموائِدَ والقِرَى مِنْ أنْوَاعِ القُرُبَاتِ، والأعْمَال الصَّالحات، مع تَصْحِيحِ النِيَّات والإرَادَات، شُكْرًا لربِّ البريَّات، لِمَا أوْدَعَ هذا الشَّهْرَ من الجَوائِزِ والصِّلات.

ومن جوائز هذا الشَّهْرِ المُبَارَك، جائزتان عظيمتان مُتَلازِمَتَان:

أُولاهما: وَلاَيَةُ اللَّه تبارك وتعالى.

ويا لَلَّه؛ ما أعْظَمَهَا مِنْ جائزةٍ تَشْرَئِبُّ لَهَا الأعْنَاق، وتَتَطَلَّعُ إلَيْهَا الأفْئِدَةُ بالأَشْوَاق!

ذلك بِأَنَّ أعْظَمَ ثَمَرَةٍ يجْنِيهَا العَبْدُ مِنَ الصِّيَام هي تَقْوى اللَّهِ ﷻ؛ إذْ قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [سورة البقرة].

والتَّقْوى شَرْطٌ لِنَيْلِ وِلايَة اللَّه ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يونس]، وكَمَا قال أيضًا: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة الأنفال][1].

الجائزة الثانية: نَيْلُ كَرَامَةِ اللَّهِ المنَّان بدُخُول جَنَّةِ الرِّضْوَان.

ذلك بأنَّ هذه التَّقْوى الَّتي هي ثَمَرَةُ الصِّيَام، يَنْشَأُ عنها دُخُولُ الجنَّةِ دَارِ السَّلام؛ فقد ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ في كتابه الكريم أنّ أهْلَ الجنَّة هُمْ أهْلُ التَّقْوى، فقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة آل عمران]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة النبأ]، وقال أيضًا سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ

(1) وانظر تفسير هذه الآية بهذا الوجه عند الإمام الطبري في «تفسيره» (9/156-157)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (11/164).

﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الدخان]، والآياتُ في هذا المعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وقد تقرَّرَ فيما سَبَقَ أنَّ الصَّائمِينَ هُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِوَصْفِ التَّقْوَى، لذَلِكَ كانُوا هُمْ أهْلَ جَنَّةِ المَأْوَى.

وقَدْ جَاءَ مِنَ الأحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ ـ مَا يُؤَيِّدُ هذا المَنْحَى، ويُعَضِّدُ هذا المَعْنَى ـ الطَّيِّبُ الكَثِيرُ، وهَذِهِ بَاقَةٌ مِنْها:

روى الشَّيْخَان عن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ؛ يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ؛ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ**».

وعن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه عن نَبِيِّ الله ﷺ قال: «**إِنَّما الصِّيامُ جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بها العَبْدُ مِنَ النَّارِ**»[2].

وعَنْ حُذَيْفَةَ بن اليَمان رضي الله عنه قال: أَسْنَدْتُ النبيَّ ﷺ إلى صَدْرِي فقال: «**مَنْ صامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بها: دَخَلَ الجنَّة**»[3].

(2) **حسن**: رواه أحمد. انظر: «صحيح الترغيب»(981).

(3) **صحيح**: رواه أحمد. انظر: «صحيح الترغيب» (985).

وعن أبي أُمامَةَ الباهِلِيِّ رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يا رَسُولَ الله، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَدْخُلُ به الجنَّةَ؟ قال: «**عَلَيْكَ بالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لا مِثْلَ له**»[4].

مِنْ أجْلِ ذلك فإنَّ أبْوابَ الجنَّةِ تُفْتَحُ فِي رمَضَانَ خاصَّةً ـ دُونَ غَيْرِهِ من الشُّهور ـ بُشْرَى للصَّائِمِين بِأَنَّهُمْ لَلجَنَّةِ مِنَ الدَّاخِلِين، كَمَا أخْبَرَ بذلك الصَّادِقُ الأَمِين ﷺ فِي حَدِيثِ الصَّحيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «**إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ**».

وفي حديث آخر عَنْهُ رضي الله عنه مرفوعًا: «**إذا كان أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ؛ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ؛ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْها بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ كُلَّ لَيْلَةٍ: يا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، ويا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وللهِ عُتَقَاءُ من النَّارِ، وذلك كُلَّ لَيْلَةٍ**»[5].

وهُنَاكَ سِرٌّ لَطِيفٌ فِي سَبَبِ نَيْلِ صَائِمِي رمضان كَرَامَةَ الرَّحْمَن بدُخُولِ جنَّة الرِّضوان، ويتَجلَّى هذا السِّرُّ مَلِيًّا مِنْ خِلاَلِ الأحاديثِ الآتية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عنْ أَكْثَرِ ما يُدْخِلُ النّاسَ الجنَّةَ؟ قال:

(4) **صحيح**: رواه ابن حبان. انظر: «صحيح الترغيب» (986).

(5) **حسن**: رواه الترمذي وابن ماجة. انظر: «صحيح الترغيب» (998).

«**تَقْوَى اللَّهِ، وحُسْنُ الخُلُقِ**»، وسُئِلَ عن أكْثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فقال: «**الفَمُ، والفَرْجُ**»[6].

وفي «الصَّحيحَيْن» عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وما بَيْنَ رِجْلَيْهِ؛ أَضْمَنْ لَهُ الجنَّةَ**».

فتَبَيَّنَ مِنَ الحَديثَيْن السَّابقَيْن أنَّ أكثَرَ ما يُدْخِلُ النّاسَ الجنَّةَ هو تَقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ عُموماً، وحِفْظُ الفَرْجِ واللِّسَانِ خُصُوصاً.

وشهْرُ رمَضَانَ مَظِنَّةُ تحْصِيلِ كُلٍّ مِنْ هَذه الخِصَالِ الطَّيِّبَةِ:

فأمّا تَقْوَى اللَّه عز وجل، فقَدْ سبقَ بيانُ أنَّهُ ثَمْرَةُ الصِّيامِ وجَنْيُهُ.

وأمّا حُسْنُ الخُلُق، وحِفْظُ الفرْجِ واللِّسَان، فلا يَجِدُ المرْءُ مَيْدَانًا للحُصُولِ عليْهما، واكْتِسَابِهِمَا أفْضَلَ مِنْ شَهْرِ رمَضَانَ.

وسبَبُ ذلك أَنَّ الشَّارِعَ الحكيمَ قَدِ اعْتَنَى بهذه الأمُورِ الثَّلاثة أيَّمَا اعْتِنَاءٍ في شَهْرِ رمضانَ خُصُوصًا؛ فقَدْ جاءَ فِيمَا يَخُصُّ حُسْنَ الخُلُقِ، وحِفْظَ اللِّسَان حديثُ الصَّحيحَيْن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُم، فَلاَ يَرْفُثْ، ولاَ يَصْخَبْ، فإنْ سابَّهُ أَحَدٌ، أوْ قَاتَلَه؛ فليقُلْ: إنِّي امرؤٌ صائِمٌ**».

وفي رواية أخرى عنه رضي الله عنه: «**لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، إنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ؛ فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ، أَوْ جَهِلَ عَلَيْكَ، فَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ**»[7].

وروى الإمامُ البخاريُّ رحمه الله عنه أيضا رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ**».

أمّا فيما يَخُصُّ حِفْظَ الفَرْجِ، فَقَدْ جعَلَ النبيُّ ﷺ الصَّوْمَ قَاطِعاً لِشَهْوَةِ الجماعِ، وكَابِحاً لِجِمَاحِها؛ ففي الصَّحيحيْن عن ابْنِ مسْعُودٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يا مَعْشَرَ الشَّبابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُم الباءَةَ فليَتَزَوَّجْ؛ فإنَّه أغَضُّ للبَصَرِ، وأَحْصَنُ للفَرْجِ، ومَنْ لم يسْتَطِعْ، فعلَيْه بالصَّوْمِ؛ فإنَّه له وِجَاءٌ**».

قالَ ابْنُ الأثير في «النهاية في غريب الأثر»: «الوِجاءُ أنْ تُرَضَّ أُنْثَيَا الفَحْلِ رَضّاً شَدِيدًا يُذْهِبُ شَهْوَةَ الجِماع، ويَتَنَزَّلُ في قَطْعِه: مَنْزِلةَ الخَصْيِ، وقد وُجِئَ وِجَاءً، فَهُوَ مَوْجُوءٌ.

وقِيلَ: هو أنْ تُوجَأَ العُرُوقُ، والخُصْيَتَانِ بحَالِهِمَا.

أرادَ أنَّ الصَّوْمَ يَقْطَعُ النِّكَاحَ كما يَقْطَعُهُ الوِجَاءُ» اهـ.

فتَبَيَّن حينَئِذٍ، أنَّه بحِفْظِ الصّائمين ألسِنَتَهُم وفُروجَهُم مِن المعَاصي والآثَام، وتَحْسِينِهم أخْلاقَهُم بحُسْنِ مُعامَلَتِهِم للأنَام، تَشَرَّفوا بنَيْلِ كرامَةِ اللَّه عز وجل بدخول الجنَّةِ دار السَّلام.

---

(6) **حسن**: رواه الترمذي، والبخاري في «الأدب المفرد»، انظر: «صحيح الترغيب» (1723).

(7) **صحيح**: رواه ابْنُ خُزَيْمَةَ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ، انظر: صحيح الترغيب (1082).

هَذَا مِنْ جِهَةٍ؛ ومِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فإنَّ مِمَّا قَرَّرَهُ اللّهُ تعالى في كتابه الكريم، أنَّ الجنّة لا ينالُها العبْدُ إلاّ بمغْفِرَة اللّهِ تبارك وتعالى ذُنُوبَهُ.

لهذا قَرَنَ اللّهُ تعالى بين الجنَّة والمغْفِرَة في غَيْرِ ما آيَةٍ، وذلك في مِثْلِ قوله جلَّ وعلا: **﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾** [سورة آل عمران]،

وفي مثْلِ قوْله سبحانه: **﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾** [سورة البقرة]، وقوْله أيْضًا ـ جلَّ مِنْ قائِلٍ ـ: **﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾** [سورة محمد].

ولمَّا كانَ الأمْرُ بهذه المثابَةِ؛ فإنَّ شهرَ رمضان هو شهرُ المغْفِرَةِ الّتي هي سببٌ لِدُخُول الجنَانِ، كما ثبَتَ ذلك في الحديث المُتَّفقِ عليْه عن أبي هريرة رضي الله عنه عَن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ صامَ رمضانَ إيماناً، واحْتِسابا: غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِه**».

وعَنْه ـ أيْضًا ـ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ صَعِدَ المِنْبَرَ فقال: «**آمينَ، آمِينَ، آمينَ**»، قيل: يا رسول اللّه، إنَّكَ صعِدْتَ المنبَرَ فقُلْتَ آمين، آمِينَ، آمينَ؟ فقال: «**إنَّ جبرائيلَ أتاني، فقال: مَنْ أَدْرَكَ شهْرَ رمضانَ، فلَمْ يُغْفَرْ له، فدَخَلَ النَّارَ؛ فأبْعَدَهُ اللّهُ، قُلْ: آمين، فقُلْتُ: آمين...**» الحديث[8].

(8) **صحيح**: رواه ابن حبَّان و ابن خزيمة. انظر: «صحيح الترغيب» (997).

فهلُمَّ أيُّها المسلمون إلى السَّعْيِ لنَيْلِ هذه الجوائِزِ الرَّبَّانيَّة، والمِنَحِ الإلَهيَّة، واهْتَبِلُوا أيَّامَ رَمَضَانَ الهَنِيَّة، للتعَرُّضِ لنَفَحَاتِ رَحْمَةِ رَبِّ البريَّة، كما أمَرَ بذلك الرسولُ الكريمُ ﷺ فيما يَرْوِيهِ عَنْهُ خَادِمُهُ أنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه؛ إذْ قال: «**افْعَلوا الخيْرَ دَهْرَكُم، وتَعَرَّضوا لِنَفَحاتِ رحْمَةِ الله؛ فإنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بهَا مَنْ يشاءُ مِنْ عِبَادِهِ**»[9].

وَرَمضانُ نَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِ رحْمَةِ اللّهِ تبارك وتعالى؛ ففي صحيحِ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذَا كَانَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ**».

ولِلَّهِ دَرُّ مَنْ قال:

مَــنْ نَــالَــهُ دَاءٌ دَوٍ بِــذُنُـوبِـهِ
فَلْيَأْتِ فِي رَمَـضَانَ بَابَ طَبِيبِه
فخُلُوفُ هذا الصَّوْمِ يا قَوْمِ اعْلَمُوا
أشْهى مِنَ المِسْكِ السَّحِيقِ وطِيبِه
أولَيْسَ هذا القَوْلُ قَوْلَ مَلِيكِكُمْ:
الصَّـوْمُ لِي وأنَـا أَجْــزِي بِـهِ؟![10]

واللّهُ المسْتَعَان، وعليه التُّكلان، ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلاّ بالله العظيم.

(9) **حسن**: رواه الطبراني. انظر «الصحيحة» (1890).

(10) ذكر هذه الأبيات ابن الجوزي في «التَّبْصِرَة» (2/63).

فتاوى شرعية

أ.د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر.

في حكم صيام من علمت أنَّها تطهر من حيضها بعد الفجر

❖ السُّؤال:

الحائض إذا علمت بأنَّها طاهر في الصَّباح هل تصوم ذلك اليوم وتقضيه؛ لأنَّها لم تبيِّت النِّيَّة من اللَّيل، أم أنَّ صيامها صحيح؟ وجزاكم الله خيرًا.

❖ الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالحائض إذا طهرت قبل الفجر أو علمت بطهرها بعده في أوَّل نهار رمضان، ولم تكن مفطرة صحَّ صيامها ولا قضاء عليها؛ لأنَّ تبييت النِّيَّة من اللَّيل ـ في الحالة الثَّانية ـ غير مقدور عليه، وقيل: هذه الصُّورة مخصَّصة من حديث حفصة رضي الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ قَبْلَ الفَجْرِ فَلاَ صِيَامَ لَهُ**»[1]، فالخبر فيه دليل على وجوب تبييت النِّيَّة وإيقاعها في جزء من أجزاء اللَّيل، غير أنَّه محمول على دخل ذلك تحت قدرته، إذ لا تكليف إلاَّ بمقدور، ويستثنى من ذلك كلّ من لم يدخل تحت القدرة فظهر له وجوب الصيام عليه من النَّهار، كالصَّبيِّ يحتلم والمجنون يفيق والكافر يسلم، وكمن انكشف له النَّهار أنَّ ذلك اليوم من رمضان؛ عملاً بحديث سلمة بن الأكوع والرُّبيع بنت معوِّذ عند الشَّيخين أنَّ رسول الله ﷺ أمر رجلاً من أسلم أن أذِّن في النَّاس: «**مَنْ أَكَلَ فَلْيَصُمْ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ فَلاَ يَأْكُلْ**»[2]، والعلم عند الله.

(1) أخرجه أبو داود (2456)، والترمذي (734)، والنسائي (2345)، وأحمد (27214)، والدارقطني (2239)، والبيهقي (8161)،وصححه الألباني في صحيح الجامع (6538).

في صحَّة صوم من أصبح جنبًا

❖ السُّؤال:

إذا جامع الرَّجل زوجته في شهر رمضان في اللَّيل بعد المغرب، واغتسل بعد الفجر، فهل صومه باطل؟

(2) أخرجه البخاري (1924، 1960)، ومسلم (2724).

❖ الجواب:

النَّهي عن صوم الجُنُب في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّه ﷺ قال: «**مَنْ أَصْبَحَ جُنُبًا فَلاَ يَصُومُ**»[3] منسوخ بحديث عائشة، وأمِّ سلمة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ: «كَانَ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ جِمَاعٍ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ»[4]؛ متَّفق عليه، وزاد مسلم في حديث أمِّ سلمة: «ولا يقضي»، وفيه دليل على صحَّة صوم من دخل في الصَّباح وهو جنب من جماع، وقد رجع أبو هريرة عنه وأفتى بقول عائشة وأمِّ سلمة رضي الله عنهما[5].

وممَّا يدلُّ على النَّسخ ما أخرجه مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلى النَّبيِّ ﷺ يَسْتَفْتِيهِ وَهيَ تَسْمَعُ مِنْ وَرَاءِ البَابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُدْرِكُنِي الصَّلاَةُ وَأَنَا جُنُبٌ أَفَأَصُومُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلاَةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ»، فَقَالَ: لَسْتَ مِثْلَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «**وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بمَا أَتَّقِي**»[6]، والعلم عند الله تعالى.

(3) أخرجه أحمد (7591)، والحميدي في «مسنده» (1066)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (10/3).

(4) أخرجه البخاري (1926)، ومسلم (2646).

(5) أخرجه مسلم (2645)، والبيهقي (8253).

(6) أخرجه مسلم (2649)، وأبو داود (2391)، ومالك (642)، وأحمد (26836).

نصيحة لمبتدئ في الالتزام

❖ السُّؤال:

مبتدئ في الالتزام بالشَّرع ومحتاج إلى توجيه يمكنه أن ينتهج به في الحياة، فأرجو من شيخنا النَّصيحة، وشكرًا.

❖ الجواب:

كن ممَّن يقتفي آثار رسول الله ﷺ بتطبيقها على نفسك، وابتغ سبيل السَّلف الصَّالح من الصَّحابة فمن بعدهم في جميع أبواب الدِّين واتَّبع سبيلهم في التَّوحيد العلمي والطَّلبي وفي حقوق التَّوحيد ومكمِّلاته من أمرٍ ونهي وإلزام وترك، واترك سبل الجدال والمراء والخوض فيما يجلب الآثام ويصدُّ عن تعاليم الشَّرع ويوقع في محاذيره، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام: 153]، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾**﴾ [النساء].

والتزم خشية الله بسلوك طريق العلم النَّافع، وداوم مراقبته ـ سبحانه وتعالى ـ في السِّرِّ والعلن، فإنَّ من أخلص القصد لله واستعان عليه أثمر علمه ثمرة خاصَّة به وهي علامة نفعه متجلِّية في خشية الله تعالى، فإنَّ رأس



الحكمة، وأصل العلم مخافة الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [سورة فاطر]، ولتكن عمارة الظَّاهر والباطن بخشية الله، فإنَّ من خشيته المسارعة إلى فعل الخيرات والمسابقة إليها، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: 148]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 133]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [سورة المؤمنون].

ومن أعظم الخيرات المحافظة على شعائر الإسلام، وإظهار السُّنَّة ونشرها بالعمل بها والدَّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، والتَّواصي بالحقِّ والصَّبر، متحملاً ذلَّ التَّعلُّم لعزَّة العلم، ذليلاً للحقِّ بثبات وتثبُّت في التَّلقِّي والطَّلب مع لزوم المحجَّة ودوام السَّكينة والوقار، وحسن السَّمت والهدي الصَّالح، فإنَّ من «ثبت نبت».

والتزم الرِّفق والصَّبر، فإنَّ «**الرِّفق ما كان في شيء إلاَّ زانه**»[7]، والرِّفق في القول ممَّا تألف به النُّفوس العاصية، إذ الكلمة الطَّيِّبة تثمر في

(7) جزء من حديث أخرجه مسلم (6602)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

النُّفوس الزَّكيَّة، والكلمة الجافية منفِّرة، أمَّا الصَّبر فهو طريق الظَّفر بالمطلوب، إذ النَّصر مع الصَّبر هو السّلاح الفعَّال لقهر العدوِّ الظَّاهر والخفيِّ، فإن استطاع قهر نفسه وشيطانه وهواه، بأن يحبس نفسه على مرضاة الله وطاعته؛ أشرق صدرُه بالحقِّ واستنار قلبه به مصداقًا لقوله ﷺ فيما رواه مسلم: «**وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»[8].

وختامًا، كن على الحقِّ، وقم بواجباتك من فعل الطَّاعات وترك المنهيَّات، ولا تُصْغِ لمثبِّطي العزائم؛ فقد يجعلون من الحبَّة قبَّة، ويصيِّرون التَّمرة جمرة، ويقلبون الشَّحمة فحمة، ولا لمن يخيفك بعواقب الأمور من ضعفاء الإيمان واليقين؛ لأنَّ ما قُدِّرَ لك لابدَّ أن يصيبك: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51]، وفي الحديث: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[9]، والعلم عند الله.

(8) أخرجه مسلم (556)، والترمذي (3859)، والنسائي (2449)، وابن ماجه (293)، وأحمد (23605)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(9) أخرجه الترمذي (2706)، وأحمد (2857)، والحاكم (6304)، والطبراني في «الكبير» (11560)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (7957).

في أقل قدر مجزئ
في تقصير شعر الرأس في العمرة

❖ **السُّؤال:**

ما حكم شخص اعتمر ثمَّ قام بتقصير شعرات من رأسه ظنًّا منه أنَّه يُجزئ، ولقد مرَّ على عمرته عام، فكيف يصحِّح عمرته الآن؟

❖ **الجواب:**

اعلم أنَّ السُّنَّة حلقُ جميعِ الرَّأسِ أو تقصيرُ جميعِه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ حلق جميعَ رأسه، وترحَّم على المحلِّقين ثلاثًا وعلى المقصِّرين مرَّة[10]، وأمر أصحابه بذلك كما في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «**لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَطُوفُوا بِالبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ ثُمَّ يحِلُّوا وَيَحْلِقُوا أَوْ يُقَصِّرُوا**»[11].

والأحوطُ للمعتمر استيعاب جميع شعره أو تقصيره، وأقل قدر مجزئ ـ على مذهب الشَّافعي ـ ثلاث شعرات، قال النَّوويُّ: «واحتجَّ أصحابنا بقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: 27]، والمراد: شعور رؤوسهم، والشَّعر أقلُّه ثلاث شعرات؛ ولأنَّه يُسمَّى حالقًا، يقال: حلق رأسَه وربعَه وثلاثَ شعرات منه؛ فجاز الاقتصارُ على ما يُسمَّى حلقُ شعرٍ، وأمَّا حَلْقُ النَّبيِّ ﷺ جميعَ رأسِه؛ فقد أجمعنا على أنَّه للاستحباب، وأنَّه لا يجبُ الاستيعابُ، وأمَّا قولُهم لا يُسمَّى حَلْقًا بدونِ أكثرِه فباطلٌ؛ لأنَّه إنكارٌ للحِسِّ واللُّغةِ والعُرفِ»[12].

قلت: ويدلُّ عليه المعقولُ ـ أيضًا ـ: لأنَّ المُحرمَ لو أزال ثلاثَ شعرات من رأسه لَزِمَهُ دمٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: 196]، فبالمقابل يجبُ اعتبارُ إزالةِ ثلاثِ شعرات ـ أيضًا ـ في الحَلْقِ والتَّقصيرِ.

وبناءً على هذا المذهب؛ فإنَّ عمرته صحيحة إن كانت بقيَّةُ أعمال العمرة تامَّة الأركانِ والشُّروطِ، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

(10) أخرجه البخاري (414/1)، ومسلم (1301)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(11) أخرجه البخاري (415/1).

(12) «المجموع» للنووي (215/8).

في حكم
اغتسال المرأة خارج بيتها

❖ **السُّؤال:**

ما حكم امرأةٍ تطهر من الحيض أو تُصيبها جنابةٌ وهي في محلٍّ بعيدٍ عن مقرِّ سكناها، ويوجد به حمَّامٌ منفردٌ، وهي تترك خروجَ الوقتين أو الثَّلاث من الصَّلاة ليتسنَّى لها الرُّجوع إلى مَنْزِلها للاغتسال؛ لأنَّها سمعت أنَّ المرأة لا يجوز لها أن تضع ثيابها في غير بيتها، فهل يجوز لها ـ والحال هذه ـ أن تتيمَّم وتصلِّي؟ أم تنتظر حتَّى ترجع إلى البيت فتغتسل ثمَّ تقضي ما فاتها؟ وجزاكم اللهُ كلَّ خير.



❖ **الجواب:**

المرأةُ كالرجل في الحكم لا يجوز لها أن تؤخِّر صلاتَها عن وقتها المحدَّد شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ١٠٣**﴾ [النساء]، أي: أجلاً محدَّدًا لا يجوز تجاوزه إلاَّ لعذر، ورفع الجنابة والاغتسال من الحيض من لوازم صِحَّة الصَّلاة، فإن كان لها حمَّامٌ منفرد مأمونٌ في المحلِّ الَّذي نزلت فيه فلها أن تغتسل فيه، ولا تُفوِّت الصَّلاة عن وقتها، كما لها أن تغتسل في أيِّ مكان في سفر أو حضر يحصل فيه الأمن في الفندق كانت أو في غيره من غير انتياب للحمَّامات العامَّة أو الشَّعبيَّة؛ لقوله ﷺ: «**الحَمَّامُ حَرَامٌ عَلَى نِسَاءِ أُمَّتِي**»[13]، ولقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُدْخِلْ حَلِيلَتَهُ الحَمَّامَ**»[14]؛ لأنَّ في الحمَّامات الجماعيَّة غالبًا ما لا تستر المرأة فيها عورتها من النِّساء.

هذا؛ واغتسال المرأة معلومٌ بالضَّرورة، وإذا كان اغتسالها لسُنَّة الإحرام في الحجِّ والعمرة على وجه الاستحباب - وهي في سفرها - فمن بابٍ أولى إذا كان الغسل في حقِّها واجبًا.

أمَّا حديث: «**وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا مِنِ امْرَأَةٍ تَضَعُ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ أَحَدٍ مِنْ أُمَّهَاتِهَا إِلاَّ وَهِيَ هَاتِكَةٌ كُلَّ سِتْرٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّحْمَنِ**»[15]، فإنَّ ظاهرَه محمولٌ على التَّكشُّف للأجنبيِّ وعدم الاستتار بلباس التَّقوى ويدخل في النَّهي - أيضًا - نزع الثِّياب في الحمَّامات العامَّة؛ ذلك لأنَّ الفضيحة تحصل بالتَّكشُّف وعدم المحافظة على ما أمرت به بالتَّستُّر بالجلباب عن الأجنبيِّ، فينال منها ما يحرِّك به شهوته، ويطمع في المزيد فتقع الهتيكة، والجزاء من جنس العمل، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

في اشتراط الحلول
في بيع قضبان الفضة بالنقد

❖ **السؤال:**

نبيع قضبانًا للتَّلحيم بعضها مصنوعٌ من الفضَّة الخالصة، وبعضها من الفضَّة المكسوة بمادَّة أخرى، مساعدة على التَّلحيم، فهل يشترط عند البيع التَّقابض يدًا بيدٍ ومِثْلاً بمِثْلٍ في مجلسٍ واحدٍ؟ وجزاكم الله خيرًا.

(13) أخرجه الحاكم (322/4) وصحَّحه، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (1292/2).

(14) أخرجه الترمذي (2801)، والحاكم (320/4)، وأحمد (339/3)، من حديث جابر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (6506).

(15) أخرجه أحمد (361/6)، والطبراني في «المعجم الكبير» (253/24)، من حديث أم الدرداء رضي الله عنها، والحديث صححه الألباني في «آداب الزفاف» (60)، وانظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (119/1)، و«مجمع الزوائد» للهيثمي (617/1)، و«السلسلة الصحيحة» للألباني (1308/7).

❖ الجواب:

يجوزُ بيعُ قضبانِ التَّلحيم من الفضَّة الخالصة أو المغشَّاة مع أيِّ نقدٍ آخرَ يخالفُ جنسَ الفضَّة كالأوراق النَّقديَّة أو الذَّهب تفاضلاً ولا تشترط المماثلة فيها؛ لأنَّ ربا الفضل لا يتحقَّق عند اختلاف الجنس، لكن يشترط في البيع أن يكون الحلول أو التَّقابض في المجلس الواحد؛ لقوله ﷺ: «**فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ**»[16]، ولقوله ﷺ: «**وَلاَ تَبِيعُوا مِنْهَا غَائِبًا بِنَاجِزٍ**»[17]، ذلك لأنَّ اتِّحاد العلَّة (وهي الثَّمنيَّة) مع اختلاف الجنس يجوز فيه التَّفاضل ويحرم فيه التَّأجيل دون اعتبار كونه من عروض التِّجارة، بل يراعى في القضبان المباعة معدنيَّتها الفضيَّة.

أمَّا إذا باعها بعرض من سلعة فيجوز فيها التَّفاضل ولا يشترط التَّقابض في المجلس الواحد لاختلاف العلَّة والجنس بينهما؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «اشْتَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا بِنَسِيئَةٍ وَأَعْطَاهُ دِرْعًا لَهُ رَهْنًا»[18]، وقد توفي النَّبيُّ ﷺ وبقي درعه مرهونًا عند يهوديٍّ، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

(16) أخرجه مسلم (4063)، وأبو داود (3350)، والنسائي (4561)، والدارمي (2481)، وابن حبان (5018)، وأحمد (22175)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(17) أخرجه البخاري (2068)، ومسلم (1584)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(18) أخرجه البخاري (2759)، ومسلم (4114)، والنسائي (4650).

في حكم كشف عورة المرأة تطلعا لاختيار جنس الولد

❖ السُّؤال:

رُزِق رجلٌ بعد زواجه بثلاث بنات، وقد أخبره طبيبٌ مختصٌّ أنَّه اكْتُشِفت طرقٌ طبيَّةٌ لمساعدة الزَّوجين على إنجابِ ولد ذكرٍ بإذن الله تعالى، فهل يجوز ـ والحال هذه ـ أن يعرضَ زوجتَه على الطَّبيب، علمًا أنَّ الكشف سيكون في محلِّ الرَّحمِ فقط؟ وجزاكم الله كلَّ خير؟

❖ الجواب:

لا يجوز للطَّبيب الرَّجل الكشف فيما له علاقة بعورة المرأة وخاصَّة المغلَّظة منها، باستثناء حالة الاضطرار والضِّيق، وعند تعذُّر وجود امرأة ذاتِ كفاءةٍ طبيَّةٍ وعارفة بأمراض النِّساء.

والحالة المذكورة فضلاً عن كون وسيلتها محتملة، فهي منتفية الضَّرورة وعارية عن الحاجة والضِّيق، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

في حدود مطالبة المرأة زوجها بسكن مستقلّ

❖ السُّؤال:

تسكن امرأة متزوِّجة مع عائلةِ زوجها، وكثيرًا ما تتفاجأ بدخول أقارب زوجها البيت من غير استئذان، بالإضافة إلى وقوعها في خلوة

بين فترة وأخرى مع أخ الزَّوج الَّذي بدأت تظهر عليه علامات البلوغ، فما عليها فعله في مثل هذه الحالات؟ وما واجب الزَّوج؟ وهل يصحُّ لها المطالبة ببيتٍ مُستقلٍّ ليزول عنها الحرج؟

❖ **الجواب:**

الواجبُ على الزَّوجةِ أن تسترَ محاسنَها وكلَّ ما يكونُ سببًا في الفتنةِ، فإن كانت في بيتِها فلا يجوزُ للأجنبيِّ ولو كانَ من أقاربِ الزَّوجِ الدُّخول عليها أو مباغتتها وهي غير متحجِّبةٍ، أو مع غير ذي محرم؛ لقوله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ**»، فقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يا رسول الله! أَفرَأَيْتَ الحمْوَ؟ قال: «**الحمْوُ الموْتُ**»[19]؛ ذلك لأنَّ الشَّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدَّم، كما لا تجوز الخلوةُ بواحدٍ منهم، أو من غيرهم ممَّن ليسوا بمَحْرَمٍ لها؛ لقوله ﷺ: «**لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَةٍ إلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ**»[20]، فالخلوة بالأجنبيَّة مثار شهوة، والشَّهوة الجنسيَّة لا حدود لها، ولها الجلوس مع زوجها أو مع ذي محرم لها إن كانت مستترة بلباسٍ سابغٍ يخفي عورتها ولا يظهر مفاتنها ولو مع أقاربه؛ لقوله ﷺ: «**ألا لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَةٍ إلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ**»[21].

هذا، وعلى المرأة ـ في هذه الوضعيَّة الحرجة ـ أن تحترز قدر الإمكان عن الوقوع في هذه المحاذير التي لا يعبأ بها معظم العائلات والأسر، ويغفلون عن نتائجها الضَّارَّة، كما أنَّه لا ينبغي لها تكليفُ الزَّوج بتوفير مسكنٍ خاصٍّ في الحال إذا كانت حدودُه الماليَّةُ لا تفي بهذه المطالبة، أو يكون الحجم المالي يُثقل كاهلَه لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، ولقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

فإن كان قادرًا على إزالةِ مفسدةِ الاختلاطِ والخلوةِ بتوفير مسكنٍ مستقلٍّ؛ وجب عليه ذلك في الحال ليصون فيه عرضه، ويحفظ أهله ويدفع الحرج عنهم، وإن لم يقدر وجب عليه تقليلُ المفسدة بأخذ الاحتياطات اللاَّزمة لتجنُّب الخلوة والاختلاط في البيت، ونصيحة أقاربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وتعريفهم بالحكم الشَّرعي وتعويدهم على التزامه، مع التَّعامل في تقديم النَّصيحة لهم بخلق الأناة والحلم والصَّبر إلى أن يفتح الله وهو خير الفاتحين.

والعلمُ عند اللهِ تعالى.

(19) أخرجه البخاري (4934)، ومسلم (5674)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(20) أخرجه الترمذي (2165)، وأحمد (178)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والحديث صححه الألباني في «الإرواء» (6/215)، وانظر طرقه في «البدر المنير» لابن الملقن (8/257)، و«نصب الرَّاية» للزّيلعي (2/249).

(21) أخرجه البخاري (2844)، ومسلم (3274)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في المراد من إطلاق الأميَّة في الحديث

❖ السُّؤال:

ما المرادُ بوصف النبيِّ ﷺ هذه الأمَّة بالأُمِّيَّة في قوله ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا»، يعني: مرَّة تسعة وعشرين، ومرَّة ثلاثين[22]، فهل يُستفاد منه نفي الكتابة والحساب؟

❖ الجواب:

المراد بالأُمَّة أكثر العرب، وأطلق عليهم وصف «الأُمِّيَّة» بالاعتبار الغالب؛ لأنَّ الكتابة فيهم كانت قليلةً ونادرةً وعزيزةً، وكذلك حساب النُّجوم وتسييرها، فلم يكونوا يعرفون الكتابة والحساب إلاَّ النَّزْر اليسير، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: 2]، وإضافة صفة «الأمِّيَّة» للعرب في الحديث إنَّما هي صفة كاشفة للواقع لا مفهوم لها، وليست علَّة لحكم؛ ذلك لأنَّ غير أُمَّة الإسلام من الأُمم الأخرى كانت تضبط مواقيتَها بالكتاب والحساب، حيث يسطِّرون الجداول ويضعون حروف الجُمَل ويحسُبون مسير الشَّمس والقمر، حتَّى يتبيَّن لهم وقت استسرار القمر ووقت الإبدار، وغير ذلك من الأمور.

فالنَّبيُّ ﷺ بيَّن أنَّ أُمَّته لا تكتب هذا الكتاب ولا تحسب هذا الحساب، فعاد كلامه ﷺ إلى نفي الكتاب والحساب فيما يتعلَّق بأيَّام الشَّهر الَّذي يُستدلُّ به على استسرار الهلال وطلوعه، فعلَّق الحكمَ بالصَّوم والإفطارِ بالرُّؤية لرفع الحرج عنهم في معاناة حساب التَّسيير، فوَصْفُهُ لها «بالأُمِّيَّة» صفة مدحٍ وكمالٍ من جهة الاستغناء عن الكتاب والحساب بما هو أبين منه وأظهر وهو الرُّؤية للهلال، وهذا بلا ريبٍ اليقينُ الَّذي لا يدخله الغلَط بخلاف النَّتائج الفلَكيَّة، فضلاً أنَّ تعليقَ حكم الصَّوم بالرُّؤية البصريَّة يستوي في معرفتها أهلُ الحساب وغيرُهم[23].

والعلمُ عند اللهِ تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.

(22) أخرجه البخاري (1814)، ومسلم (2511)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(23) للمزيد من الاطِّلاع راجع: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية: (25/174 ـ 176)، «فقه النَّوازل» لبكر أبو زيد (147 ـ 178).

أبو عثمان ابن الحداد الغسّاني المالكي القيرواني...

ومناظرته مع الشيعي

فريد بودربالة
ماجستير في اللغة والدراسات القرآنية. وهران

الحمد لله الّذي أعزَّ السُّنَّة وأمات البدعة، وجعل أعلامًا ينصرون دينه، ويذبُّون عن سنَّته ﷺ، ويناظرون من أجل إعلاء راية الإسلام، كما ارتضاه لنا سبحانه وتعالى، قال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]؛ وكما تركنا عليها ﷺ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلاَّ هَالِكٌ وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا المُؤْمِنُ كَالجَمَلِ الأُنُفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ»[1].

ومن المؤسف جدًّا أن نجهل أعلامًا من أعلام بيئتنا «المغرب العربي» المجاهدين لحفظ الدِّين، ونصرته، ليصل إلينا نقيًّا صافيًا من شوائب البدع والمحدثات، ومن هؤلاء: الثَّبت أبو عثمان بن الحدَّاد الغسّاني المالكي القيرواني الَّذي عُرف بمناظراته القويَّة والهادفة في صدِّ البدع والمحدثات الدَّاخلة على الشَّرع، ولهذا السَّبب أردنا أن نبرز هذه الشَّخصيَّة المنسيَّة في الكتب، بسبب أنَّنا لم نزل الغبار على تلك الكتب لنخرج منها الدُّررَ من أمثال ابن الحدَّاد الغسّاني المالكي القيرواني.

(1) أخرجه أحمد (126/4) وابن ماجه (43) والحاكم (1/ 96)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (937).

❖ **ترجمته**[2]:

هو: سعيد[3] بن محمَّد بن صبيح الأستاذ أبو عثمان بن الحداد الغسَّاني القيرواني النَّحوي، الفقيه أحد الأعلام، وَكَانَ إمامًا متفنِّنًا.

توفيِّ في حدود الثلاثمائة، وقد ذكر أنَّه مات سنة (302هـ).

كان يذمُّ التَّقليد، ويقول: «هو من نقص

(2) ينظر في ترجمته: «طبقات النحويين واللغويين» (ص239)، «سير أعلام النبلاء» (205/14)، «معجم الأدباء» (ص1373)، «الوافي بالوفيات» (112/15)، «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» (589/1)، «كتاب طبقات علماء إفريقية» (198/6)، كتاب «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» (57/2)، «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» (73/1).

(3) أورده الصّفدي ضمن من اسمه «سعد» وتبعه من تبعه والأصل: سعيد كما ذكرته المصادر الأخرى.

العقول، ودناءة الهمم».

ويقول: «ما للعالم وملاءمة المضاجع»، وكان يقول: «دليل الضبط الإقلال، ودليل التَّقصير الإكثار».

ووصفه الذَّهبيُّ بقوله: «ابن الحدَّاد: الإمام، شيخ المالكيَّة، أبو عثمان، سعيد ابن محمَّد بن صبيح بن الحدَّاد المغربي، صاحب سحنون، وهو أحد المجتهدين، وكان بحرًا في الفروع، ورأسًا في لسان العرب، بصيرًا بالسُّنن... وكان **من رؤوس السُّنَّة**»[4].

❖ له من التصانيف[5]:

«توضيح المشكل فِي القرآن»، و«المقالات في الأصول»، و«الاستيعاب»، و«العبادة الكبرى»، و«العبادة الصغرى»، و«الاستواء»، و«الأمالي»، و«الرد عَلَى الملحدين»، وغير ذَلِكَ.

❖ قوَة حجَته في المناظرة:

كان أبو عثمان ابن الحدَّاد الغسَّاني رَحِمَهُ اللهُ قويّ المناظرة، بالغ الحجَّة، دقيق الفهم، بصير المذهب، عجيب الرَّدِّ، له ثقة فيما يناظر عليه، لا يخاف لومةَ لائم، ومع ذلك مَنْ سمع من الخصوم إلاَّ ورجعوا إلى الحقِّ أو تَكتَّمُوا جوابًا وردًّا على حجَّته.

قال ابن الحارث: «له مع شيخ المعتزلة الفرَّاء مناظرات بالقيروان، رجع بها عدد من المبتدعة»[6].

ووصفه الزُّبيدي بقوله: «وكان الجدَلُ أغلبَ الفنون عليه، وكان دقيق النَّظر جدًّا، ثابت الحجَّة، شديد العارضة، حاضر الجواب صحيح الخاطر»[7].

❖ أعظم مناظراته:

كانت أعظم مناظراته رَحِمَهُ اللهُ مع الشِّيعة حيث وصف لنا الزُّبيدي ذلك فقال: «وكانت لسعيد بن محمَّد بالقيروان في أوَّل دخول الشِّيعة، مقامات محمودة ناضل فيها عن الدِّين، ذَبَّ عن السُّنن؛ حتَّى مثَّله أهلُ القيروان في حاله تلك بأحمد بن حنبل أيَّام المحنة، وذلك أنَّهم لَمَّا ملكوا البلد أظهروا تبديل الشَّرائع، وإحالة السُّنن؛ وبَدَروا إلى رجلين كبيرين من أصحاب سُحنون فقتلوهما، وعرَّوْا أجسادهما، ثمَّ نودي عليهما: هذا جزاء مَن ذهب مذهب مالك؛ فارتاع جُملة أهل السُّنَّة، وتجمَّعوا إلى سعيد، فسألوه التَّقيَّة ـ وكان أبو عبد الله المعلم يبعث إليهم للمناظرة، وكان سعيد المعتمد عليه فيها ـ فأبَى سعيد من التَّقيّة، وقال: إنِّي قد أربيتُ على التِّسعين، وما بي إلى العيش حاجة، وقتيل الخوارج خيرُ القتلى، ولابدَّ لي من المناضلة عن الدِّين، وأن أبلِّغ ذلك عذرًا؛ ففعل ذلك وصدق ونصح رَحِمَهُ اللهُ»[8].

قال محمَّد: «وكانت لأبي عثمان مقامات

(4) «سير أعلام النبلاء» (206/14).

(5) وممن ذكر مؤلفاته: «الوافي بالوفيات» (15 ص 112)، «هدية العارفين» (201/1)، «إيضاح المكنون» (73/1)، (124/1)؛ «معجم المؤلفين» (213/4).

(6) «سير أعلام النبلاء» (206/14).

(7) «طبقات النحويين واللغويين» للزُّبيدي (239).

(8) نفس المصدر: (ص239 ـ 240).

كريمة ومواقف محمودة في الدَّفع عن الإسلام والذَّبِّ عن السُّنَّة ناظر فيها أبا العبَّاس المخدوم أخا أبي عبد الله الشِّيعي الصَّنعاني بملء فمه، ومُنى نفسه، مناظرة القرن المساوي، بل مناظرة المتعزِّز المتعالي، لم يتلعثم لفظاعة المقام، ولا أحجم لهيبة السُّلطان، ولا خاف ما خيف عليه من سطوة الحدثان، ولقد قال له ابنه محمَّد يومًا: اتَّق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرَّجل، فقال له: حسبي مَنْ له غَضبْتُ وعن دينه ذَبَبْتُ»[9].

نصُّ المناظرة

قال أبو بكر بن اللّباد الفقيه: بينما سعيد ابن الحدَّاد يومًا جالس إذ أتاه رسولٌ من قِبل البغدادي، فقال له: أحبَّ أبو جعفر أن يراك، قال: فلبست ثيابي ومضيت حتَّى أتيت بابه، فإذا برجل أُجلس لي ينتظرني، فقال: ادخل، فدخلت عليه، فقال لي: أحبَّ عبيد الله (أن يجتمع بك) فقلت: ها أنذا، فركب وجعل معي من يصحبني ومضى هو أمامي.

(قال) فمضيت مع الرَّجل حتَّى أتى بي إلى مكان فأجلسني فيه، فأنا جالس حتَّى أتاني رسول ثانٍ غير الرَّجل الَّذي كنت معه، فقال لي: قم يا شيخ! فقمت فدخلت معه حتى أتيت إلى باب المجلس الَّذي هو فيه، فإذا بعبيد الله (لعنه الله) جالس والبغدادي واقف على رأسه، فدخلت وأقبل أبو جعفر فقال لي: اجلس، فجلست، فإذا بكتاب لطيف إلى جانبه على مخدَّة، فرأيته وقد أومى إلى أبي جعفر فقال له: اعرض الكتاب على الشَّيخ. فقال: ورمقته ببصري فعرفت الكتاب، قال: تصفَّح، فجعل يده على بعض الصَّفحة وأنا أنظر إلى الإسناد، فقال لي أبو جعفر: اقرأ قال: فقلت له: عرفت الحديث وهو حديث «غديرخُمّ»: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ**»[10].

فعطف عليَّ عبيد الله (لعنة الله عليه) فقال لي: فما للنَّاس لا يكونون عبيدنا؟

فقلت له: ـ أعز الله السَّيِّد ـ لم يرد ولاية الرّقِّ، إنَّما ولاية في الدِّين.

قال: فقال لي: فهل شاهد من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؟

فقلت: نعم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾**﴾ [سورة آل عمران]، فما لم يجعله الله عَزَّوَجَلَّ لنبيٍّ لم

(9) «كتاب طبقات علماء إفريقية» (6/199).

(10) أخرج الإمام أحمد في «مسنده» (4/372) عن زيد ابن أرقم أنه قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ بواد يقال له: وادي خم، فأمر بالصلاة، فصلاها بهجير، قال: فخطبنا وظُلِّل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فقال: ألستم تعلمون، أو لستم تشهدون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فإن عليًّا مولاه اللهم عاد من عاداه، ووال من والاه». وإسناده صحيح. وقد خرجه الألباني في «الصحيحة» (1750).

يجعله لغير نبيٍّ، وعليٌّ لم يكن نبيًّا، إنَّماَ كان وزير نبيٍّ ﷺ، فقال لي: انصرف لا ينالك أحد[11].

خرج جماعة من القيروان للقاء الشِّيعي ـ لعنة اللَّه عليه ـ منهم: أبو عثمان وحماس وابن عبدون، وكان أبو عثمان مهاجرًا لابن عبدون، وذلك أنَّه حبسه، فقال ابن عبدون لأبي عثمان: تقدَّم يا أبا عثمان، فلم يجبه، فقال له: تقدَّم فليس هذا وقت مهاجرة، فلسانك سيف اللَّه، وصدرك خزانة اللَّه، وإنَّما أراد ابن عبدون بذلك أن يحرِّضه على مناظرة الشِّيعي.

ولَمَّا خرج لمناظرته خرج معه أهله وولده وهم يبكون، فقال لهم: لا تفعلوا، لا يكون إلاَّ خيرًا، حسبي من له خرجت وعن دينه ذببتُ.

فأوَّل مجلس جرى له معه أنَّه قال: أرسل ورائي الشِّيعي ـ لعنة اللَّه عليه ـ وما كنت آتي إليه إلاَّ برسول، فدخلت إليه في قصر إبراهيم ابن أحمد وحوله جماعة من أصحابه وجماعة ممَّن ينسب إليهم العلم من أهل بلدنا، فسلَّمت ثمَّ جلست، فقال أبو عبد اللَّه لإبراهيم ابن يونس ـ وقد قيل له: إنَّ هذا الشيخ كان قاضيًا على هذه المدينة ـ بأيِّ شيء كنت تقضي؟

فقال له إبراهيم: بالكتاب والسُّنَّة.

فقال له أبو عبد اللَّه: فما السُّنَّة؟

فقال له إبراهيم: «السنَّة.. السنَّة...».

قلت لأبي عبد اللَّه: المجلس مشترك أو خاص؟

فقال: مشترك.

فقال أبو عثمان: أصل السُّنَّة في كلام العرب: المثال الَّذي يتمثَّل عليه، قال الشَّاعر:

تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غَيـرَ مُقْرِفَةٍ
مَلْسَاءَ لَيْس بهَا خَالٌ وَلاَ نَدَبُ[12].

أي صورة وجه ومثاله.

والسُّنَّة محصورة في ثلاث: الائتمار بما أمر به رسول اللَّه ﷺ، والانتهاء عمَّا نهى عنه، والائتساء به فيما فعل.

قال الشيعي: فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي ﷺ، وجاءت السُّنَّة من طرق؟

قلت له: أنظر إلى أصحِّ الخبرين نقلاً؛ فآخذ بأصحِّهما، وأطلب الدَّليل على موضع الحقِّ في أحد الحديثين، ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة فلابدَّ من طلب الدَّليل على موضع الحقِّ من الشَّهادتين.

فقال الشيعي: فلو استووا في الثَّبات؟

فقلت له: يكون أحدهما ناسخًا والآخر منسوخًا.

قال: فمن أين قلتم بالقياس؟

فقلت: قال اللَّه عَزَّوَجَلَّ في كتابه العزيز:

(11) ذكر هذه القصَّة الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (206/14)، وأبو بكر عبد اللَّه بن محمَّد المالكي في كتاب «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» (58/2).

(12) البيت لذي الرمة، وهو في «ديوانه» (ص8) من قصيدته التي مطلعها:
ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلى مفرية سرب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: 95]، فالصَّيد معلومة عينه، والجزاء الَّذي أمرنا أن نمثله بالصَّيد (المعلومة) عينه ليس بمنصوص، فعلمنا بذلك أنَّ الله تعالى إنَّما أمرنا أن نمثل ما لم ينصَّ ذكر عينه: بالقياس والاجتهاد.

ومنه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ فلم يكله إلى واحد حتى جعلهما اثنين: ليقيسا ويجتهدا.

(فقال أبو عبد الله الشِّيعي): ومن ذوا عدل؟ وأومأ أن «ذوا عدل» إنما هم قوم مخصوصون بنصِّ الآية.

قال: فقلت: هم الَّذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم في آية المراجعة: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: 2]، ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: 83]، والاستنباط غير منصوص.

ثمَّ عطف على موسى القطَّان فقال له: أين وجدتم حدَّ الخمر في كتاب الله تعالى؟

فقال له موسى: قال النبيّ ﷺ: «**مَنْ شَرِبَهَا فَاضْرِبُوهُ بالأردية، ثُمَّ إِنْ عَادَ فَاضْرِبُوهُ بالأَيْدِي، ثُمَّ إِنْ عَادَ فَاضْرِبُوهُ بالجَرِيدِ**»[13].

(فقال له أبو عبد الله على النَّكير منه: إيش هذا؟ أقول لك: أين وجدتم حدَّ الخمر في كتاب الله تعالى، وتقول: «اضربوه بالأردية ثم بالأيدي ثم بالجريد»؟

قال أبو عثمان: فقلت له: إنَّما حدّ قياسًا على حدِّ القاذف (لأنَّه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى[14]، فوجب عليه ما يؤول أمره إليه وهو حدُّ القاذف).

فقال لموسى القطان: أو لم يقل النبي ﷺ: «**أقضاكم عليّ**»، فجعل موسى وهو ينصُّ عليه الحديث: «...**وأعلمكم بحلال الله وحرامه معاذ، وأرأفكم أبو بكر، وأشدكم في دين الله عمر**»[15] ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

(13) إنَّما ثبت بلفظ عن أنس أنَّ النَّبيَّ ﷺ ضرب في الخمر بالجريد والنِّعال وجلد أبو بكر رضي الله عنه أربعين. متَّفق عليه.

(14) أخرجه مالك: (55/2) في الأشربة: باب الحد في الخمر من طريق ثور بن زيد الديلي: «أن عمر بن الخطاب استشار في الخمر يشربها الرجل، فقال له علي: نرى أن نجلده ثمانين، فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هدى افترى أو كما قال فجلد عمر في الخمر ثمانين». قال الحافظ في «تلخيص الحبير» (75/4): وهو منقطع، لأن ثورا لم يلحق عمر بلا خلاف، لكن وصله النسائي في «الكبرى»، والحاكم (375/4) من وجه آخر عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس.

(15) هو قطعة من حديث أخرجه الترمذي (3791) وابن ماجه (155)، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينا، وإن أمين هذه الامة أبو عبيدة ابن الجراح**». وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (2218) والحاكم (422/3)، ووافقه الذهبي، وقد أخرجه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (1224). =

فقال له الشيعي: وكيف يكون أشدهم في دين الله وقد هرب بالراية يوم حنين؟

فقال له موسى: ما سمعنا بهذا ولا نعرفه.

قال أبو عثمان: فقلت له: تحيَّز إلى فئة كما أنزل الله تعالى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: 16]، [فمن تحيَّز إلى فئة] كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ فليس بفار.

فمال [الشيعي] بوجهه إلى بعض أصحابه فقال: أتسمع ما قال الشيخ، قال: انحاز إلى فئة كما أمر الله ـ سبحانه ـ.

فقال مجيبًا ـ وهو يشير بيده ـ أي فئة أكثر من رسول الله ﷺ [وقد كان حاضرًا ولم يتحيَّز إليه] وكأنَّه تخافت في كلامه ويسمع من يليه.

[فقلت: جاء عنه ﷺ، أنَّه قال: «**عمر فئة**» فمن تحيَّز إلى عمر فقد تحيَّز إلى فئة.

فسكت، فحرَّكه بعض أصحابه، وقال: ألا تسمع ما يقول الشيخ؟ فقال: صدق، أو نحو هذا من القول سمعتها أنا منه ومن كان يليه].

ثم قال لأبي عثمان: هلاَّ كان عندك من قول الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن نبيِّه ﷺ في قوله لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]، دلالة أنَّ حزنه كان مسخوطًا؛ لأنَّ النبي ﷺ نهاه عنه.

فقال أبو عثمان: لم يكن قوله له إلاَّ تبشيرًا بأنه آمن على رسول الله ﷺ وعلى نفسه معه ممَّا كان يحذره من غلبة المشركين، وكان خوفه لما خاف من ذلك من أجل أنَّه لا يظهر على غيب ما تجري به مقادير الله عَزَّوَجَلَّ ورسول الله ﷺ ينزّل عليه الوحي بغيب ما يكون قبل أن يكون فكان في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ما يبيِّن أنَّ الله معهما، بنصرته إيَّاهما وذلك لا يكون إلاَّ بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ وقد بيَّن الله تعالى إطلاعه أنبياءه المرسلين على غيبه بقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن].

فقال (له) أبو عبد الله: وهل تجد لهذا نظيرًا من التنزيل: «لا تفعل» يراد به التبشير ولا يراد به النهي عن أمر مسخوط؟

فقال (له) أبو عثمان: نعم، قال: الله عَزَّوَجَلَّ لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه] لمَّا خافا من فرعون أن يفرط عليهما أو أن يطغى ولم يكن خوفهما خوفًا يسخط الله عَزَّوَجَلَّ عليهما من أجله؛ لأنهما لو أديل لفرعون عليهما لكان في ذلك طغيانًا لفرعون وتضعضعًا للدين وهما رسولان داخلان في (معنى) قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، فأطلعهما الله عَزَّوَجَلَّ على غيب ما خافا

= قال الشيخ مشهور آل سلمان في التعليق على الحديث في الطبعة التي اعتنى بها من طبع دار المعارف: «الصواب أنه مرسل، عدا ذكر أبي عبيدة، قاله الحاكم في «المعرفة»، والخطيب في «الفصل للوصل» وجمعٌ، وذكرت كلامهم، وقرأته على شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في مكتبه وأقرَّني على ما توصلت إليه ـ وكان ذلك بعد هذا التصحيح ـ وعلق تضعيفه بخطه على هامش الثالث من الصحيحة» اهـ.

كما أطلع محمدًا (نبيّه) ﷺ على غيب ما يؤول إليه الأمر الذي خافه أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، فصار قول الله عز وجل في أبي بكر شرفًا لم يبلغه أحد بعده: فإنَّ الله تعالى أنزل فيه وفي الأمر الذي خافه من التبشير بالأمن منه ما أنزل على موسى وهارون صلّى الله عليهما.

فقال له أبو عبد الله: أَفلاَ أوجب قول الله تعالى عند من سمعه: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ**﴾ [آل عمران : 144] انقلاب أصحاب محمد ﷺ؟

فقال له أبو عثمان: لا؛ لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون على أعقابكم لأن معنى: ﴿**أَفَإِيْن مَّاتَ**﴾: استفهام، ومعنى: ﴿**انقَلَبْتُمْ**﴾: أفتنقلبون؛ والاستفهامان إذا جاءا في قصة واحدة اجتزئ بأحدهما عن الآخر؛ وهذا الاستفهام إنَّما هو معنى التَّقدير بأن لا تنقلبوا على أعقابكم.

فقال له: فهل تجد في كتاب الله عز وجل نظيرًا يكون من هذا دليلاً؟

فقال له: نعم، قول الله عز وجل: ﴿**أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾**﴾ [الأنبياء] أي إنَّك إن مت فهم لا يخلدون، فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر، فكأن لفظ الاستفهام من ذلك مراد به التقدير: (بأنهم لا يخلدون).

فقال أبو عبد الله: يا أهل المدينة إنكم تبغضون عليًّا.

فقال أبو عثمان: على مبغض علي لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وكيف أبغض عليًّا وقد سمعت سحنون بن سعيد - وهو إمام أهل المدينة بالمغرب - يقول: «علي بن أبي طالب إمامي في الدين أهتدي بهديه وأستنَّ بسنَّته وأقتفي أثره» رحمة الله عليه.

فقال أبو عبد الله: أراد أن يقول: ﷺ، فرجع فقال: رحمة الله عليه.

فقال أبو عثمان: - ورفع بها صوته -، نعم، ﷺ؛ لأنَّ الصلاة في كلام العرب: الرحمة والدعاء، قال الأعشى[16]:

تقول بِنْتي وقد قَرَّبْتُ مرتحلاً
يا ربِّ جَنِّبْ أبي الأَوْصابَ والوَجَعَا
عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي
نَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعًا

فالصلاة من الله رحمة ومن الآدميين دعاء، نعم، فصلّى الله على عليّ وفاطمة والحسن والحسين وعلى أهل طاعته أجمعين من أهل السموات والأرضين.

فقال له أبو عبد الله: أليس قد قال النبي ﷺ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ**» أفليس عليّ مولاك؟

فقال أبو عثمان: هو مولاي بالمعنى الذي أنابه مولاه، ومعنى مولاي: على الولاية في الدين لا مولى عتاقة، وذلك أنَّ المولى في كلام العرب: الولّي وابن العمّ والمعتق والمنعم عليه، قال الله عز وجل في ابن العمّ - حكاية عن زكرياء عليه السلام -:

(16) «ديوان الأعشى» (73).

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي ﴾ [مريم: 5] يريد به العصبة، وقال في ولاية الدِّين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [سورة محمد] أي لا وليّ لهم، وقال في المؤمنين: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: 71]، فعليّ مولى المؤمنين بأنَّه وليّهم، وهم مواليه بأنهم أولياؤه، فهو مولاي بالمعنى الذي أنا به مولاه.

فقال أبو عبد الله: ألم يقل النبيّ ﷺ: «**عَلِيٌّ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى**»؟

فقال له أبو عثمان: نعم إلاّ أنَّه قال: «**إلاّ أنَّه لا نبيَّ بعدي**»[17] وهارون كان حجَّة في حياة موسى، وعليٌّ لم يكن حجَّة في حياة النبيّ ﷺ، وهارون كان شريكًا لموسى، أفكان لعلي شرك مع النبيّ ﷺ في النبوّة؟ إنَّما قال رسول الله ﷺ: «**عَلِيٌّ مِنِّي كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى**» على التقريب والوزارة والولاية.

قال: أليس هو أفضل؟

فقال له أبو عثمان: أليس الحقُّ متفقًا عليه غير مختلف فيه؟

قال: نعم.

قال: فقلت له: قد ملكت مدائن كثيرة قبل مدينتنا هذه ـ وهي أعظم مدينة ـ واستفاض الخبر عنك أنَّك لم تكره أحدًا خالفك في مذهبك على الدخول فيه فاسلك بنا مسلك غيرنا.

فألح عليه بعض أصحابه في قصدنا.

فقال لهم: نقول كما قال شعيب: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: 87].

ثمَّ نهضنا[18].

(17) أخرجه البخاري (8/86)، ومسلم (2404) عن سعد ابن أبي وقاص، قال: خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله! تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟! غير أنَّه لا نبي بعدي».

(18) القصة ذكرها صاحب كتاب «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» (57/2) بتمامها؛ وذكرها صاحب كتاب «طبقات علماء إفريقية» (202/6) المجلس الثاني؛ وذكرها الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (206/14)، وأغفل بعض الزيادات.

✍ كنوز مخبوءة في تراثنا الجزائري ②:

آثارٌ لم تتضمَّنْها الآثارُ!

أبو عبد الرحمن محمود

بعد رحلتِه المشرقيَّة الَّتي دامت إحدى عشرة سنة قضاها بين المدينة النَّبويَّة ودمشق الشَّام متعلِّمًا ومعلِّمًا؛ قرَّر الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي العودة إلى الجزائر سنة (1920م)، فاستقرَّ بنواحي سطيف، فبدأ «أوَّلاً: بعقد النَّدوات العلميَّة للطَّلبة والدُّروس الدِّينيَّة للجماعات القليلة، فلمَّا تهيَّأت الفرصة انتقل إلى إلقاء الدُّروس المنظَّمة للتَّلامذة..»[1].

وفي هذه الفترة (1920م ـ 1928م) لم يَعثر الباحثون في تراث الشَّيخ، المهتمُّون بجمعه ـ وفي مقدِّمتهم نَجْلُه الأستاذُ الدُّكتور أحمد طالب الإبراهيمي ـ على شيءٍ يُذكر[2] سوى ما كتبه الشَّيخ تقريظًا لرسالة ألَّفها الشَّيخ السَّعيد فُضلاء البهلولي[3]، ونشره ابنه الأستاذ محمَّد الطَّاهر فضلاء في كتابه «دعائم النَّهضة الوطنيَّة» (ص43).

وها نحن نزفُّ إلى القرَّاء الكرام هذه البشرى السَّارَّة، فنضع بين أيديهم كنزًا ثمينًا، وأثرًا دَفينًا من آثار الشَّيخ في تلك الحقبة.

أملاه على طلبته المشار إليهم في كلمته المتقدِّمة، وقيَّده بعضُ الحاضرين[4] منهم ممَّن يُعدُّ من أقاربه في كرَّاسٍ صغير، عثرتُ عليه في خزانته المتواضعة، في بيتٍ قديم مِنْ بيوتات «عين مليلة» العريقة.



(1) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (279/5) بتصرف.

(2) «مقدمة الآثار» (10/1 ـ 11).

(3) في الردِّ على الطرقيين والعوام القائلين بوجوب تلقين الأوراد والذكر، نشرتها المطبعة الثعالبية بالجزائر سنة (1926م)، انظر: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (45/1) لمحمد الحسن فضلاء.

(4) هو الشيخ محمد بن علي الإبراهيمي، كان إماما بمسجد «عين مليلة» العتيق، توفي سنة (1977م) رَحِمَهُ اللهُ.

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد
عام (1342)[5].

إملاءٌ في الأمر والنَّهي

للأستاذ محمَّد البشير الإبراهيمي

الأمر ضدُّ النَّهي في مفهوم اللُّغة، لكلٍّ منهما صيغةٌ مخصوصة.

وأوامر الشَّرع ونواهيه جاريةٌ على المجرى اللُّغوي في الأصول، بمعنى أنَّ كلَّ واحد يردُ في مقامه بلفظه.

والأمر عند الأصوليِّين: قولٌ يُستدعى به الفعل مِنَ الأدنى على سبيل الوجوب.

فـ «قول»: يخرجُ الأوامر الفعليَّة، فلا تُسمَّى أمرًا إلاَّ مجازًا عند المحقِّقين.

ودليلُهم أنَّ الأمر الفعليَّ لا يتصرَّفُ تصرُّفَ القول، فلا يُقال عنه: أَمَرَ، يَأْمُرُ.

«مِنَ الأدنى»: يخرجُ الالتماس والدُّعاء، فلا يُسمَّيان أمرًا، وإن كان بصيغته.

و«على سبيل الوجوب» يخرج أمر الإباحة والتَّعجيز والتَّهديد وغيرها من ضروب الأمر الَّتي لم تدلَّ على غيرها من الوجوب.

أمَّا التَّعجيز: فلوروده موردًا خاصًّا في الخطاب، والتَّهديد مثله.

وأمَّا الإباحة: مثل ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: 2]، والحديث: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا**»[6]، فهي وإن كان متعلّقها عامًّا في الخطاب غير أنَّ الأمر فيها يقتضي الإذن، وليس فيه إلزام لوروده بعد الحظر، والحكمة تقتضي الانتقال من الحظر إلى الإباحة لا إلى الوجوب.

ومن الأصوليِّين من سمَّاها أمرًا؛ نظرًا إلى عموم متعلّقاتها.

وهل الأمر يقتضي الوجوب بلفظه أو يدلُّ على طلب الفعل، والوجوب مأخوذٌ من مقام خارجيٍّ؟

مسألةُ خلافٍ بين الأصوليِّين، والتَّحقيق الثَّاني؛ لأنَّه لو كان مقتضيًا للوجوب بلفظه لكانت جميع صيغِه سواء في ذلك، والواقع خلافه.

ورجَّح أبو إسحاق الشِّيرازي[7] الأوَّل؛ مستدلاًّ بأنَّ السَّيِّد إذا قال لعبده: اسقني، فلم يَسْقِه، استحقَّ التَّوبيخ، فلو لم يكن الامتثال واجبًا لم يستحقّه[8].

(5) الموافق لعام (1923م).

(6) أخرجه مسلم (977) وغيره من حديث بُريدة رضي الله عنه.

(7) هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي، من علماء الشافعية، من تصانيفه: «المهذب»، من أجل شروحه «المجموع» للنووي، و«اللمع في أصول الفقه»، و«التبصرة» و«المعونة في الجدل» وغيرها، توفي سنة (476هـ).

انظر «سير أعلام النبلاء» (18/452 ـ 464) للذهبي.

(8) انظر: «التبصرة في أصول الفقه» (ص22 و30) للشيرازي، طبعة دار الفكر ـ بيروت.



واختلف القائلون بدلالة الأمر على الوجوب هل هي من جهة الشَّرع أو مِنْ جهة الوضع؟

وذهب المحقِّقون مِنَ المعتزلة إلى أنَّ الأمر يقتضي إرادة الفعل، ثمَّ إن كان مِنْ حكيم اقتضى زيادة ترغيبٍ، وهي النَّدب.

وأمَّا الوجوب فلا يكون إلاَّ بدليل خارجيٍّ، وعلى هذا تجري أوامر الشَّرع.

واختلفوا في المندوبات: هل هي مأمور بها أم لا؟

وحُجَّةُ النَّافين: قوله ﷺ: «**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي**»[9]، مع العلم بأنَّ السِّواك مندوب إليه.

ثمَّ الأمر إمَّا أن يَرِدَ مطلقًا أو مقيّدًا.

فالأوَّل يجب معه العزم على الفعل، ولا يجب فعل المأمور به على الفور عند المحقِّقين؛ لأن الامتثال يحصل بالفعل مع المبادرة ومع التَّراخي، فوجوب المبادرة لا يكون إلاَّ بدليل آخر غير الأمر.

وأمَّا الأمر المقيَّد بزمان، فلا يخلو أن يكون المأمور به يستغرق الزَّمان كلَّه أوْ لا.

فإنْ كان يستغرقه وجب الفعلُ على الفور عند دخول زمنه؛ لأنَّ المقيّد وقَيْدَه متلازمان، وكذلك صوم رمضان.

وإن كان المأمور به لا يستغرق الوقت كالأمر بصلاة الظُّهر من زوال الشَّمس إلى القامة الأولى: فالمحقِّقون على أنَّه يجب فعل المأمور به وجوبًا موسَّعًا؛ لأنَّ أجزاء الزَّمن قابلة للفعل، والشَّرع عيَّن المبدأ والغاية، فالأشبه باليسر والرِّفق إبقاء الخيرة للمكلَّف في إيقاع الصَّلاة في أيِّ جزءٍ منها، ومع هذا فقد رغَّبه في المبادرة.

ولا يَلْزَمُ العزم على الفعل قبل دخول الوقت في الصُّورتين، أمَّا بعد دخوله ففي الصَّوم لا يكفي العزم، ويتعيَّن الفعل لِمَا ذَكَرْنَا، وفي الصَّلاة يجب العزم إن أخَّر الفعل.

وذهب بعض الأصوليِّين إلى أنَّ الوجوب يتعلَّق بأحد أمرين: إمَّا الفعل أو ضيق الوقت.

وذهب الحنفيَّة إلى أنَّ الوجوب متعلِّق بآخر الوقت، وبنوا على هذا أنَّ مَنْ صلَّى في أوَّل الوقت فهو متنفِّلٌ، ثمَّ إن جاء آخر الوقت، وهو مِنْ أهل الوجوب سَقَطَ عنه توجُّه الفرض بذلك النَّفل، وهذا تحكُّمٌ لا دليل عليه.

مبحث:

إذا أمر الشَّرع بمأمورات متعدِّدة مبنيَّة على وجود شيءٍ آخر كالكفَّارة المترتِّبة على الحنث أو الظِّهار أو القتل، ويجمعها الجزاء على الاقتراف، فلا يخلو أن تكون تلك الأوامر واردة بصيغة التَّخيير كـ «أو» أو بالنَّص على التَّرتيب بينها أوْ لا.

ففي الصُّورة الأولى يجب واحد مِنْ تلك المأمورات غير معيَّن، وتبرأ الذِّمة بفعل واحد منهما، فإذا فَعَلَ سَقَطَ الطَّلب.

وقد ورد في القرآن مِنْ هذا النَّوع كفَّارة اليمين المطلق وجزاء الصَّيد، فأوجب في الأولى

(9) تمامه: «**لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**» أخرجه البخاري (887) ومسلم (252) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أربعة أشياء، خيَّر في ثلاثة منها ورتَّب الرَّابعة، فالواجب واحد من الثَّلاثة على سبيل التَّخيير للمكلَّف، وأيًّا فَعَلَ سَقَطَ عنه الطَّلبُ، ولا ينتقل إلى الرَّابعة إلاَّ بعد العجز عن الثَّلاثة.

وأوجب في الثَّانية ثلاثةَ أشياءَ، والمكلَّف مخيَّر، ويسقط عنه الوجوب بفعلٍ واحدة.

وورد من النَّوع الثَّاني في القرآن: كفَّارة الظِّهار والقتل، وأوجب في كلِّ واحدة منهما ثلاثة أشياء على التَّرتيب، بمعنى أنَّ المكلَّف لا يجوز له الانتقال عن الواجب الأوَّل إلاَّ عند العجز عنه.

فتبيَّن أنَّ الواجب في التَّرتيب واحدٌ معيَّنٌ، على حسب المأمور عند وجود المقتضي.

مبحث:

إنْ كفَّر المخيَّر في الثَّلاثة المخيَّرِ فيها سَقَطَ عنه الطَّلب بالواحد منها، والباقي تطوُّع.

وأمَّا مَنْ فَرْضُهُ التَّرتيب، وكان قادرًا على الرُّتبة الأولى؛ فكفَّر بها، ثمَّ كفَّر بالباقي سقط عنه الطَّلب بالواحد المتعيّن والباقي تطوُّع، وهكذا يُقال في كلِّ رُتبة وما بعدها.

مبحث
في إيجاب ما لا يتمُّ المأمور إلاَّ به

إذا أمَرَ الشَّرعُ بأمرٍ وتوقَّف إتمامُه على شيءٍ آخر، فهل يكون المكلَّف مأمورًا بفعل المتوقّف عليه؟

في المسألة تفصيل:

فإنْ كان المتوقّف عليه شرطًا لازمًا في ذلك المأمور به كالاستطاعة في الحجِّ، والمال في الزَّكاة، لم يكنِ الأمرُ بالزَّكاة والحجِّ أمرًا بتحصيل الاستطاعة والمال؛ لأنَّ الأمر بالحجِّ لم يتناولْ مَنْ لا استطاعة له، والأمر بالزَّكاة لم يتناول من لا مال له، ويلزم على تكليفه بهما إسقاط الشَّرط الشَّرعيِّ.

وأمَّا إذا لم يكن المتوقّف عليه شرطًا بتلك الكيفيَّة، فلا يخلو أن يكون شرطًا منصوصًا على وجوب تحصيله بأمرٍ خصوصيٍّ كالطَّهارة للصَّلاة أو ليس بشرط.

فأمَّا الأوَّل: فإنَّه وإن توقَّف عليه المشروط لم يدخل في الأمر بالصَّلاة، بل وجب بأمر خارجيٍّ.

وأمَّا الثَّاني: فيتناوله الأمر بالواجب، ويقال فيه: ما لا يتمُّ الواجب إلاَّ به فهو واجب، كغسل شيءٍ مِنَ الرَّأس؛ لتوقُّف استيفاء الوجه عليه.

وتنبني عليه فروع كثيرة، منها: مَنْ نسي صلاةً وجهل عينها يجب عليه أنْ يصلِّي خمسًا لتدخل المنسيَّة فيها.

مبحث:

إذا أُمرنا باجتناب شيءٍ، وكان اجتنابه يتوقَّف على اجتناب شيءٍ آخر لم يتعلَّق النَّهي به استقلالاً.

نظرنا: فإنْ كان في ترك الجميع مشقَّة سقَطَ حكم النَّهي، وذلك كاختلاط النَّجاسة

بالماء الكثير، وكاختلاط ذات محرمٍ بنساءِ قُطْرٍ كاملٍ.

وأمَّا إذا لم يكن في ترك الجميع مشقَّة فهو على ضربين:

ـ ضربٌ يختلط فيه المنهيُّ عنه بغيره، فيجب ترك الجميع، كالأَمَة المشركة بين مالكين، وكالأخت مع امرأة أخرى، وكالنَّجاسة مع الماء القليل.

ـ وضربٌ لا يختلط فيه المنهيُّ بغيره، كالآنية المُتَنَجِّسة بين أوانٍ طاهرةٍ، فيجب التَّحرِّي إن أمكن.

مبحث:

إذا أمرنا بصيغة على سبيل الوجوب، فالأمر يستلزم إيجاب المأمور؛ لأنَّ الصِّفة لا تتمُّ بدون موصوفها، وحكم الموصوف حكم صفته.

مبحث

في أجزاء المأمور به

إذا توجَّه الخطاب إلى المأمور به على الوجه الَّذي تناوله الأمر أو يزيد عليه أو ينقص منه.

فإن فعله على الصِّفة الَّذي[10] تناولها الأمر أجزأه وسقط عنه الطَّلب، ولا يحتاج في الإجزاء إلى دليل خصوصيٍّ، ولا حجَّة للقائلين بذلك.

وإنْ زاد على المأمور به زيادة لا تُخِلُّ به سقط عنه الطَّلب بأقلّ ما يقع عليه اسم المأمور به والباقي تطوُّع، كأن يُؤمر بالرُّكوع فيزيد على ما تحقَّق به مسمَّاه.

ومن الأصوليِّين من قال: إنَّ الزِّيادة واجبة أيضًا بالاستتباع وإن لم يتناولها مفهوم الأمر.

وإن نقص؛ فلا يخلو أن ينقص ما هو شرط فيختلّ المشروط ولا يسقط الطَّلب، أو ينقص ما ليس بشرط فيسقط الطَّلب ويعدُّ ممتَثِلا.

(10) كذا في الأصل.

الأطفال في بيت النبوة

الحلقة الرابعة

فريد عزوق
المدينة النبوية

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: بتُّ عند خالتي ميمونة، فقلت: لأنظرنَّ إلى صلاة رسول الله ﷺ، فطرحت لرسول الله ﷺ وسادةً، فنام رسول الله ﷺ في طولها، فجعل يمسح النَّوم عن وجهه، ثمَّ قرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران حتَّى ختم، ثمَّ أتى شَنًّا معلَّقًا فأخذه فتوضَّأ، ثمَّ قام يصلِّي فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثمَّ جئت فقمت إلى جنبه، فوضع يده على رأسي، ثمَّ أخذ بأذني فجعل يفتلها، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ أوتر[1].

وعن ابن عبَّاس: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أتى الخلاء فوضعت له وَضُوءًا، فلمَّا خرج قال: مَنْ وَضَعَ هَذَا؟ ـ في رواية زهير: قالوا، وفي رواية أبي بكر ـ قلت: ابن عبَّاس، قال: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ[2].

وعن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فوضعت له وضوءًا من اللَّيل فقالت له ميمونة: وضع لك هذا عبد الله ابن عبَّاس، فقال: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ[3].

ففي بيت ميمونة تعطَّر الموقف النَّبويِّ بعدَّة فوائد تربويَّة، منها:

1 ـ فيه بيان فضل ابن عبَّاس رضي الله عنه حَبْر هذه الأمَّة، فقد سمت نفسه لطلب المعالي، حين تنسَّم عبق النُّبوَّة، فأراد أن يكون قريبًا من رسول الله ﷺ ليتمثَّل سمته ودلَّه حيث قال: **لأنظرنَّ إلى صلاة رسول الله ﷺ**، لذا بات عند خالته ميمونة رضي الله عنها[4]، وبات النَّبيُّ ﷺ وزوجه رضي الله عنها في طول الوسادة، وبات هو في عرضها[5]، وحرص على أن لا يثير انتباه النَّبيِّ ﷺ إليه، فقال: فقمت فتمطَّيت كراهية أن يرى أنِّي كنت أنتبه له، ليكون أقرب لمعاينة هدي النَّبيِّ ﷺ، وهذا يدلُّ على أنَّ أفضل العلم وأنفعه ما اجتمع فيه الخبر والمعاينة والنَّظر والتَّطبيق،

(1) البخاري (4570).

(2) البخاري (143) ومسلم (2477)، واللَّفظ له.

(3) أحمد (335/1).

(4) لأن أمَّه أم الفضل بنت الحارث.

(5) ليتمكَّن من رؤية صلاة النَّبيِّ ﷺ بكلِّ وضوح.

ففيه كما قال العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ارتقاب ابن عبَّاس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لأحوال النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ؛ إذ لا فرق بين التَّعلُّم من القول والتَّعلُّم من الفعل، فقد سمر ابن عبَّاس ليلته في طلب العلم»[6].

ولا يثمر هذا النَّوع من التَّعلُّم إلاَّ بوجود عالم ربَّانيٍّ عارف بأحوال تلامذته، قدوة لهم في سلوكه وسيرته، حريص على نفعهم، مقوِّم لمعارفهم وأفكارهم، جامع لهم حسن البيان مع جودة الأداء.

2 ـ في حرص النَّبيِّ ﷺ على معرفة من وضع له الإناء[7] إشارة إلى أنَّ على المربِّي والمعلِّم مسؤوليَّة اكتشاف المواهب والطَّاقات الخيِّرة، ورعايتها وزيادة الاهتمام بها، لتكون نبراسًا للأمَّة ومنارة مضيئة للسُّفن المدلجة، فالمواهب إذا صقلت ونميت عاد ذلك على الأمَّة بالخير، والتَّاريخ خير شاهد على هذا، فكم من طاقات ومواهب شجِّعت، فأصبحت بعد ذلك علامة بارزة في حياة المجتمع وحصنًا منيعًا لجسدها، وقد ذكر المربُّون أنَّ رعاية المواهب تتمُّ باكتشاف ميول الطِّفل أوَّلاً، ثمَّ تشجيعها ثانيًا؛ مادِّيًّا ومعنويًّا، ثمَّ توجيهها ومتابعتها ثالثًا حتَّى تصقل وتستوي على سوقها.

والسَّبيل إلى اكتشاف المواهب هو التَّعرُّف إلى رغبات الموهوب وميوله ومدى التَّحمُّس لتحقيقها وسمة التَّميُّز فيها ونسبة التَّفوُّق على غيره، ولقد ظهرت هذه الخصائص في شخص عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بوضوح؛ حيث إنَّ رغبته وميله إلى طلب الحديث وتفسير القرآن والتَّفقُّه في الدِّين برزت عنده منذ الصِّغر، قال عن نفسه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **إنْ كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النَّبيِّ** ﷺ[8] حتَّى إنَّه كان يأتي علماء الصَّحابة من الأنصار فيجلس عند أبوابهم منتظرًا خروجهم ليسمع منهم الحديث وهو صابر متلهِّف لتلقِّي العلم من أفواههم، وفاق بهذا أترابه كما شهد له بذلك القاصي والدَّاني، **فعن ابن عبَّاس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا قبض رسول الله ﷺ؛ قلت لرجل من الأنصار: هلمَّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنَّهم اليوم كثير، قال: فقال: واعجبًا لك يا ابن عبَّاس أترى النَّاس يفتقرون إليك وفي النَّاس من أصحاب النَّبيِّ ـ عليه **الصَّلاة** والسَّلام ـ من فيهم؟ فترك ذلك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرَّجل فآتيه وهو قائل[9] فأتوسَّد ردائي على بابه تسفي الرِّيح عليَّ التُّراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عمِّ رسول الله! ألا

(6) «عمدة القاري» (177/2).

(7) كما في رواية **أحمد** (335/1) أنَّ ميمونة بنت الحارث زوج النَّبيِّ ﷺ هي الَّتي أخبرته بصنيع ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال ابن حجر في «الفتح» (170/1): «وأنَّ ذلك كان في بيتها ليلاً، ولعلَّ ذلك كان في اللَّيلة الَّتي بات ابن عبَّاس فيها عندها ليرى صلاة النَّبيِّ ﷺ».

(8) قال الذهبي: «إسناده صحيح»، [«سير أعلام النبلاء» (344/3)].

(9) من القيلولة، أي نائم في الظَّهيرة.

أرسلت إليَّ فآتيك، فأقول: أنا أحقُّ أن آتيك فأسأله. قال: فبقي الرَّجل حتَّى رآني وقد اجتمع النَّاس عليَّ، فقال: هذا الفتى أعقل مني[10].

وأمَّا سمة التَّفوُّق والتَّميُّز فظهرت في ما حصله من علم في الكتاب العزيز حتَّى قال فيه ابن مسعود رضي الله عنه: نعم ترجمان القرآن ابن عبَّاس[11]، **وكذا ما حصله من علم في السُّنَّة النَّبويَّة لقربه من الرَّسول** ﷺ **وهو صغير، وسماعه الحديث من الصَّحابة في كبره، حيث عدَّ مسنده ألفًا وستّ مئة وستّين حديثًا**[12]، **وما حصله من فتاوى الخلفاء والصَّحابة الكبار** رضي الله عنهم، **قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة:** كان ابن عبَّاس قد فات النَّاس بخصال؛ بعلم ما سبق، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، ونائل، وما رأيت أحدًا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أعلم بما مضى ولا أثقب رأيًا فيما احتيج إليه منه، ولقد كنَّا نحضر عنده، فيحدِّثنا العشيَّة كلَّها في المغازي، والعشيَّة كلَّها في النَّسب، والعشيَّة كلَّها في الشِّعر[13].

والفضل بعد الله تعالى في ما وصل إليه حبر الأمَّة هو اهتمام النَّبيِّ ﷺ به، وتشجيعه والدُّعاء له، ومتابعة توجيهه وتعليمه متى ناسب ذلك؛ فقد كان ذات يوم رديف النَّبيِّ ﷺ، فقال ﷺ له: «**يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ...**» الحديث[14]، واعتنى به الخلفاء الرَّاشدون من بعده، فقد كان عمر يصطحبه معه إلى مجالس كبار الصَّحابة[15] وربَّما تباحث معه مسائل العلم[16].

---

(10) أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (367/2)، والدَّارمي في «سننه» (150/1)، والحاكم في «مستدركه» (188/1)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري **وهو أصل في طلب الحديث وتوقير المحدث**، ووافقه الذَّهبيُّ. وقال شعيب الأرنؤوط [«سير أعلام النبلاء» (343/3)]: «إسناده صحيح».

(11) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (366/2) وغيره.

(12) الذهبي. [«السير» (359/3)].

(13) «سير أعلام النبلاء» (350/3)].

(14) خرجه أحمد (293/1)، والتِّرمذي (667/4)، والحاكم (623/3)، وقال الألباني: «صحيح». [«صحيح الجامع» (7957)]، ولنا وقفة مع هذا الحديث في مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى.

(15) كما في البخاري عن ابن عبَّاس قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنَّه من قد علمتم فدعاه ذات يوم، فأدخله معهم فما رئيت أنَّه دعاني يومئذ إلاَّ ليريهم قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١﴾، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عبَّاس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: ف﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾. وذلك علامة أجلك. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ٣﴾. فقال عمر: ما أعلم منها إلاَّ ما تقول».

(16) أخرج ابن سعد في «طبقاته» (369/2) عن عامر ابن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: سمعت أبي يقول: ما رأيت أحدًا أحضر فهما، ولا ألبَّ لبًّا، ولا أكثر علمًا، ولا أوسع حلمًا من ابن عبَّاس، ولقد رأيت عمر بن الخطَّاب يدعوه للمعضلات، ثمَّ يقول: عندك قد جاءتك معضلة ثمَّ لا نجاوز قوله وإنَّ حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار.



وفي تاريخنا مواقف تربويَّة سديدة لبعض العلماء والآباء والأمَّهات الَّذين اكتشفوا مواهب تلامذتهم أو أبنائهم، وقاموا بتوجيهها وتشجيعها، تقديرًا للمسؤوليَّة المنوطة بهم، فكان من ثمرات هذا العمل التَّربويِّ أن برز أئمَّة وعلماء ربَّانيُّون جدَّدوا للأمَّة أمر دينها، والمقام لا يتَّسع له المقال، ولكن أذكر من ذلك نماذج تربويَّة يحتذي بها من أراد السَّير على دربهم، فمنهم:

ـ الإمام سفيان الثوري رحمه الله: فقد وجَّهه أبوه ـ وكان محدِّثًا ـ لطلب العلم بعد أن لمس فيه رغبة مِلحَّة لطلب الحديث، قال الذَّهبيُّ: «وطلب العلم وهو حَدَثٌ باعتناء والده المحدِّث الصَّادق سعيد ابن مسروق الثَّوري وكان والده من أصحاب الشَّعبي وخَيثمة بن عبد الرَّحمن، ومن ثقات الكوفيِّين»[17]، وقال الذَّهبيُّ: **«كان ينوِّه بذكره في صغره من أجل فرط ذكائه وحفظه وحَدَّث وهو شاب»**[18] كما كان لأمِّه ـ رحمها الله ـ الفضل بعد الله في تشجيعه على طلب العلم، وتوجيهه الوجهة الصَّحيحة للتَّحلِّي به، فقد روى وكيع عن أمِّ سفيان الثَّوري أنَّها قالت لسفيان: **«يا بنيَّ! اطلب العلم وأنا أكفيك من مغزلي، يا بني! إذا كتبت عشرة أحاديث فانظر هل ترى في نفسك زيادة في مشيتك وحلمك ووقارك؟ فإن لم تر ذلك فاعلم أنَّه لا يضرُّك ولا ينفعك»**[19].

ـ الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله: قرأ القرآن وسمع الحديث وارتحل هو والموفَّق ابن قدامة المقدسي إلى بغداد سنة ستِّين وخمسمائة وهناك اكتشف موهبتهما الشَّيخ عبد القادر؛ فأنزلهما عنده في المدرسة مع أنَّه كان لا يترك أحدًا ينزل عنده، **ولكن توسَّم فيهما الخير والنَّجابة والصَّلاح فأكرمهما وأسمعهما**[20].

ـ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فقد كان محلَّ رعاية واهتمام من أسرته في تحصيل العلم، حتَّى ذاع صيته، ممَّا جعل أهل العلم يهتمُّون بلقياه على صغر سنِّه ليتحقَّقوا من موهبته ويشجِّعوه على تنميتها، فقد ذكر ابن عبد الهادي أنَّ بعض مشايخ علماء حلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبيٍّ يقال له أحمد بن تيمية، وأنَّه سريع الحفظ، وقد جئت قاصدًا لعلِّي أراه، فقال له خيَّاط: هذه طريق كُتَّابه[21]، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا السَّاعة يجيء يعبر علينا ذاهبًا إلى الكتَّاب، فجلس الشَّيخ الحلبيُّ قليلاً، فمرَّ صبيان، فقال الخيَّاط للحلبيِّ: هذاك الصَّبيُّ الَّذي معه اللَّوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشَّيخ، فجاء إليه فتناول الشَّيخُ اللَّوحَ فنظر فيه، ثمَّ قال: يا ولدي! امسح هذا حتَّى أملي عليك شيئًا تكتبه، ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثًا، وقال له: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمَّله مرَّة بعد كتابته إيَّاه، ثمَّ دفعه إليه، وقال: اسمعه

(17) «السير» (7/230).

(18) «السير» (7/236).

(19) «تاريخ جرجان» (ص492).

(20) «البداية والنهاية» (13/38).

(21) مكان تعلُّم الأطفال الصِّغار القرآن.

عليَّ، فقرأه عليه عرضًا كأحسن ما أنت سامع، فقال له: يا ولدي! امسح هذا، ففعل، فأملى عليه عدَّة أسانيد انتخبها، ثمَّ قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أوَّل مرَّة، فقام الشَّيخ، **وهو يقول: إنْ عاش هذا الصَّبيُّ ليكوننَّ له شأن عظيم، فإنَّ هذا لم ير مثله**، أو كما قال[22].

ومن المسؤوليَّات التَّربويَّة الَّتي ذكرها المربُّون في رعاية الموهوبين تصويب الموهوب وتعديل سلوكه، إذا كان يسخِّر موهبته في الفساد والإفساد والبعد عن الله تعالى، وهذا ما صنعه النَّبيُّ المربِّي ﷺ مع أبي محذورة رضي الله عنه لَمَّا رجع من حنين، فقد ذكر أبو محذورة عن نفسه قائلا: (خرجت في نَفَرٍ فكنَّا ببعض طريق حنين، فقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطَّريق، فأذن مؤذِّن رسول الله ﷺ بالصَّلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذِّن ونحن متنكِّبون فصرخنا نحكيه ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ الصَّوت، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله ﷺ: **أَيُّكُمُ الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ قَدِ ارْتَفَعَ؟** فأشار القوم كلُّهم إليَّ وصدقوا، فأرسل كلَّهم وحبسني، فقال: **قُمْ فَأَذِّنْ بِالصَّلاَةِ**، فقمت ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله ﷺ ولا ممَّا يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى إليَّ رسول الله ﷺ التَّأذين هو نفسه فقال: **قُلْ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ لِي: ارْجِعْ فَامْدُدْ مِنْ صَوْتِكَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ، حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ، حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**، ثمَّ دعاني حين قضيت التَّأذين، فأعطاني صرَّة فيها شيء من فضَّة، ثمَّ وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثمَّ أمارَّها على وجهه مرَّتين، ثمَّ مرَّتين على يديه، ثمَّ على كبده، ثمَّ بلغت يد رسول الله ﷺ سرَّة أبي محذورة، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: **بَارَكَ اللهُ فِيكَ**. فقلت: يا رسول الله! مرني بالتَّأذين بمكَّة، فقال: **قَدْ أَمَرْتُكَ بِهِ**، وذهب كلُّ شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهيَّة، وعاد ذلك محبَّة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكَّة، فأذَّنت معه بالصَّلاة عن أمر رسول الله ﷺ»[23].

كما أنَّ مِنَ الخطأ تربويًّا إرغام الطِّفل على اختيار مسار معيَّن في حياته التَّعليميَّة وهو غير راغب فيه أو مستعدٍّ له؛ لأنَّ للنَّاس استعدادات وميولاً لا تتحرَّك لفعل شيء بنشاط وإتقان إلاَّ عن رغبة وحبٍّ، وبالمقابل مهما عمل في ذلك وهو غير مقتنع بجدوى مساره، فلن

(22) «العقود الدُّرِّيَّة» (ص20).

(23) أخرجه أحمد (409/3) وغيره، وصحَّح الألباني الحديث في «صحيح الجامع» (2764)، وحسَّن إسناده شعيب الأرنؤوط في «المسند» (15417).



تنتفع الأمَّة منه كثيرًا لغياب عنصر الإبداع والحماسة والإخلاص في مساره.

3 ـ أنَّ في قوله ﷺ لابن عبَّاس: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ** دليلاً على أنَّ التَّحفيز والتَّشجيع والإثابة لها أهميَّة كبيرة في تنمية شخصيَّة المتعلِّم، وتشجيعه وزيادة ترغيبه في التَّحصيل، قال النَّوويُّ: «**فيه فضيلة الفقه، واستحباب الدُّعاء بظهر الغيب، واستحباب الدُّعاء لمن عمل عملا خيرًا مع الإنسان، وفيه إجابة دعاء النَّبيِّ ﷺ له، فكان من الفقه بالمحلِّ الأعلى**»[24]، وقال ابن حجر: قال التيمي: "**فيه استحباب المكافأة بالدُّعاء، وقال ابن المنير: مناسبة الدُّعاء لابن عبَّاس بالتَّفقُّه على وضعه الماء من جهة أنَّه تردَّد بين ثلاثة أمور؛ إمَّا أن يدخل إليه بالماء إلى الخلاء، أو يضعه على الباب ليتناوله من قرب، أو لا يفعل شيئًا، فرأى الثَّاني أوفق؛ لأنَّ في الأوَّل تعرُّضًا للاطِّلاع، والثَّالث يستدعي مشقَّة في طلب الماء، والثَّاني أسهلها، ففعله يدلُّ على ذكائه، فناسب أن يدعى له بالتَّفقُّه في الدِّين ليحصل به النَّفع وكذا كان**»[25].

وقد ذكر المتخصِّصون في التَّربية أنَّ الثَّواب أسلوب من أساليب التَّعليم النَّاجعة في إدارة الدَّرس وإيصال المعلومة إليه؛ لأنَّ ذلك يدلُّ على أنَّ ما يقوله الطَّالب، أو يقوم به من تصرُّف هو أمر محبوب وصواب، له قيمة في نظر المعلِّم، والثَّواب سواء أكان معنويًّا؛ كالدُّعاء له بالخير أو الثَّناء عليه، أو كان مادِّيًّا كالجوائز العينيَّة أو ما شابههما أمرٌ يغفل عنه المعلِّمون والمربُّون والآباء، ممَّا يؤدِّي إلى إماتة الموهبة في مهدها، وإشعار الطَّالب بالإحباط رغم ما يبذله من جهد، بل هناك بعض الآباء لا يحسن إلاَّ الدُّعاء على أبنائه بما هو شرٌّ لهم وليس على لسانه إلاَّ السِّباب أو الإحباط أو تحطيم المعنويَّات مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لاَ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ تبارك وتعالى سَاعَةَ نيل فِيهَا عَطَاء فَيَسْتَجِيب لَكُمْ**»[26].

(24) «شرح مسلم» للنَّووي (16/37).

(25) «فتح الباري» (1/245).

(26) أبو داود (1532)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (7267).

صيامنا بين العادة والعبادة!

أحمد معمر
ليسانس علوم إسلامية - تيارت

الحمد لله الَّذي فَرضَ علينا صيَام رَمَضَان، ويسَّر لنا فيهِ سُبُلَ الطَّاعة والرِّضوَان، والصَّلاة والسَّلام على رسول الإيمان، قُدوة المخلِصين من أهل الصِّيام، وآله الطَّاهرين وصحبه الكرام.

أمَّا بعد:

فقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله وقد وضَع يَده على بعض أَدوَاء النُّفوس: «رأيت عَادات النَّاس قد غلَبَت علَى عَملِهم بالشَّرع، فَهم يَستوحشُون من فِعل الشَّيء لعَدَم جَرَيان العَادة، لا لنَهي الشَّرع»!

ثمَّ بعد كلامٍ له قال: «فإنَّ الإنسَان لو ضُربَ بالسِّياط ما أفطَر في رَمضَان عادةً قد استَمرَّت! ويأخذ أعراض النَّاس وأموَالهم عَادة غَالبة»[1] اهـ.

وما ذلك إلاّ لأنَّ النَّاس نَشأ صَغيرهم، وهَرِم كَبيرُهم على أنَّ انتِهَاك حرمة رَمضان جُرم شَنيع، يُلحق المعَرَّة والعَار بمرتَكبه، ثمَّ في حَال غَفلةٍ من النَّاس، اندَرَس رُكن الامتِثال والاستِسلام، بمثل هَذه العِبَادة الجليلَة لله - سبحَانه وتَعَالى -، حتىَّ خَلَت قلوبهم من حُضُور الاحتسَاب بهذه العبَادة، وصَاروا يُؤدُّونها مُجاراةً لعُموم المسلِمين فيمَا هم فيه، وصَار رمضَان لا يعني عند أكثر النّاس - كما قيل - إلاَّ تغيرًا في مَواعيد الأكل، مع غُلوٍّ سَخيف في تَكثير صُنُوف الأكل، وأنبَار الطَّعَام، ولمَّا فَقَدنا رُوح الصِّيام ومعَاني الاحتسَاب، صَارَ أحدُنا يُسلِّي نفسَه حال الجزَع من الجوع والعطَش في نهار رمضَان، ويمنِّيها بموعِد الإفطَار، والهجُوم على أجناسِ الأكل المختَلِفة.

وهذا الذُّهول عن مَعنى احتسَاب الصَّوم، تهوُّر من الصَّائم يُفوِّت عليه ثَواب الصِّيام وفَوائده، وقد يحوِّل عملَه إلى مشقَّة وعَناء، حظُّه منه الجوع والعطَش، كما سيأتي في الحديث.

❖ فقه حديث الاحتساب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[2].

قوله: «إيمانًا» أي: تصديقًا جازمًا بحكم اللّه، وحقِّ فرضيَّة صيامه، وأنَّ وعده والثَّواب عليه حقٌّ[3].

(1) «صيد الخاطر» (ص228 - 229).

(2) رواه البخاري (1901)، مسلم (760).

(3) «فتح الباري» (149/4) و«شرح النووي لمسلم» (39/6).



وقوله: «احتسابًا»: الحِسْبَة بالكسر لغةً: الأجر، والاسم منه الاحتساب[4]، ومعنى الحديث كما قال العلماء: هو أن يبتغي بصيامه وجه الله مخلصًا له وحده، راجيًا لثوابه، وَقَالَ الخَطَّابي: «هُوَ أَنْ يَصُومَهُ عَلَى مَعْنَى الرَّغْبَة فِي ثَوَابهِ طَيِّبَةً نَفْسُهُ بذَلِكَ غَيْرَ مُسْتَثْقِل لِصيَامِهِ، وَلاَ مُسْتَطِيل لأَيَّامِهِ[5]، وأكثر ما يجيء ذكرُ الاحتساب في ما يخشى الذُهولُ عَنه[6]، ثمَّ إنَّ منطوق الحديث يدلُّ على أنَّ كلَّ ما رُتِّب على الصِّيام؛ من ثواب عظيم، وفوائد جليلة، مشروط بهذين الشَّرطين: الإيمان والاحتساب، ولهذا قال رسول الله ﷺ في الحديث الآخر: «**لاَ أَجْرَ لِمَنْ لاَ حسبةَ لَهُ**»[7] فلابدَّ للصَّائم من مجاهدة نفسه لإحضار قلبه وملاحظة رقابة الله تعالى على صيامه وتعبُّده، وأنَّها هي الدَّافع لامتِنَاعِه عن طعَامِه وشهَوَاتِه، رغم اقتدَاره عليها، وأن يَستثير في نفسه الرَّغبة ودوام التَّطلُّع إلى جزاء الله وثوابه الَّذي أعدَّه للصَّائمين، واستكمَالُ هذه الحال هو السِّرُّ في قول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، الصِّيامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بهِ**»[8]، وتأمَّل قوله: «**مِنْ أَجْلِي**» فللمخلصين عندها دَمعَاتٌ وتأمُّلاتٌ.

واعلم أنَّ تحقيق مرتبة الاحتساب هو الَّذي يؤهِّل الصَّائم إلى حقائق التَّقوى، ولهذا لَمَّا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣**﴾ [سورة البقرة]، ختم الآية بقوله: ﴿**لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ**﴾.

وللإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ كلام ماتع قيِّم عن فقه العلاقة بين أصلي الإيمان والاحتساب والتَّقوى، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأمَّا التَّقوى فحقيقتها العَمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنَّهي وخوفًا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتَّقوى»، قالوا: وما التَّقوى؟! قال: «أن تعمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»[9].

وهذا أحسن ما قيل في حدِّ التَّقوى، فإنَّ كلَّ عمل لابدَّ له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعةً وقربةً حتَّى يكون مصدره عن الايمان، فيكون الباعث عليه هو **الإيمان المحض لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه**، وغير ذلك، بل لابدَّ أن يكون مبدؤه محض

(4) «القاموس المحيط» (مادة: حسب).

(5) «فتح الباري» (4/149).

(6) «العرف الشذي شرح سنن الترمذي» للكشميري (2/141).

(7) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (152)، انظر: «الصحيحة» (2415).

(8) رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللَّفظ له (1894)، ومسلم (1151).

(9) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (1343)، وابن أبي شيبة «المصنَّف» (30356).

الإيمان وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب، ولهذا كثيرًا ما يُقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا**» و«**مَنْ قَامَ لَيلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا**» ونظائِره.

فقوله: «على نورٍ من الله» إشارة إلى الأصل الأوَّل، وهو الإيمان الَّذي هو مصدر العمل، والسَّبب الباعث عليه.

وقوله: «ترجو ثواب الله» إشارة أنَّ الأصل الثَّاني ـ وهو الاحتساب ـ وهو الغاية الَّتي لأجلها يوقع العمل ولها يقصد به» [10]اهـ.

وحتَّى يَنال الصَّائم حظَّه من قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ ينبغي أن يغتنم فرصة رمضان؛ بأن لا يُغفِل قلبَهُ عن استحضار مشاعر الصِّيام، واستشعار التَّلبُّس بعبادة الصَّوم العظيمة، وليكن على ذكرٍ أنَّ الَّذي يمنعُهُ عن تعَاطي ما يُوجبُ إبطَالَ صَومِه أو نَقصِه، إنَّما هو رقَابة الله تعالى، رغبةً ورهبةً، وأنَّ نَفسَهُ مُلتزمَة بِهِ التزَامَ تَعبُّد؛ ليَستَهدفَ بهذا تَعوِيد النَّفس الانفِطَامَ عَن المحظُور، وليروِّضها عَلى استِسهَالِ تركِهِ، مستفيدًا من قوَّة صَبرهَا في انقطَاعهَا عَن مباشَرة شَهوَة الطَّعام والفَرج، وهما من أعظم الشَّهوات؛ ليعزِّزَ في قَلبِهِ أركان التَّقوى، والَّتي تبقى حصنًا منيعًا دون ارتياد المعاصي، وبوائق الإثم.

ثمَّ إنَّ تكرُّرَ هذه المشاعر ـ الَّتي يقود زِمَامَهَا الاحتسَاب ـ طيلة مُدَّة هذا الشَّهر ـ

(10) «الرِّسالة التَّبوكية» (ص8 ـ 10).

كفيلٌ في زيادة الإيمان، والملَكَة الَّتي تحرِّك في نَفس صَاحبها الوَازع الدِّيني، الَّذي سَيستَمرُّ رَادعًا للعَبد المُخلِص عن جميع ما يُسخط ربَّه، كمَا رَدَعَهُ عن الأكل والشَّراب، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجَة في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»[11]، إذْ لو كان صيام هذا الصَّائم ناشئًا عن إيمانٍ واحتسَابٍ؛ لانكسَرت شَهوتُه عن الرَّفث وقَول الزُّور، كمَا قد انكسَرت عن الطَّعام، فلمَّا لم يَنتهِ عن المعصية ولم يَشمل صَومُه جميعَ جَوارحِه؛ قال في مثلِه النَّبيُّ ﷺ: «**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الجُوعُ وَالعَطَشُ**»[12].

إنَّ الصِّيام الحَقيقي هو الَّذي يَصنَع في الصَّائم النَّفسَ التَّقيَّة الصَّالحَة، ليسَ في شَهر رَمضَان فَحَسب، بل طوَال أيَّام وأعوَام عُمرها، فَلا يعني انسِلاَخ الشَّهر بالنِّسبة للمُؤمن، إلاَّ ميلادًا جديدًا لنفسٍ تربَّت في محاضن الصِّيام والقيام، فاستفادت دُربةً على مقاومة الشَّهوات، والتَّعفُّف عن المُغريات، مع مزيدِ همَّةٍ في المسارَعَة إلى رَوضَات الطَّاعَة والقُربَات، والإقبَال عَلى الله حُبًّا وتعظيمًا.

نسأل الله أن يرزقنا الصِّيام إيمانًا واحتسابًا، وأن يغفر لنا إنَّه كان غفورًا توَّابًا، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وأتباعِه من الصَّحابَة، والله تعالى أعلى وأعلم.

(11) رواه البخاري (1804).

(12) رواه أحمد (8856) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرِّفق في الدَّعوة

✍ قال الشَّيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**» ولا سيما في هذا العصر، هذا العصر عصرُ الرِّفق والصَّبر والحكمة، وليس عصر الشِّدَّة.

النَّاس أكثرهم في جهل، في غفلةٍ وإيثارٍ للدُّنيا، فلابدَّ من الصَّبر، ولابدَّ من الرِّفق حتَّى تصل الدَّعوة، وحتَّى يُبَلَّغ النَّاس وحتَّى يُعلَّموا، ونسأل الله للجميع الهداية».

[«مجموع فتاوى ومقالات ابن باز» (8/334)]

من تصاحب؟

✍ عن سفيان بن عُيَيْنَة، عن عبدالملك ابن أبْجَر، قال: قال علقمةُ بن لَبيد لابنهِ:

«يا بُنَيّ! إنْ نازَعتْكَ نفسُك إلى صُحْبةِ الرِّجال؛ فاصْحَبْ مَن إذا صَحِبْتَهُ زانَك؛ وإن خَدَمْتَه صانك؛ وإن مرَّت بك بليَّةٌ مانك (أيْ: قام بكفايتك)، اِصْحَبْ مَن إنْ قلتَ صدَّق قولَك، وإن أصَبْتَ سدَّد صوابَك، اِصْحَبْ مَن إن رأى منك ثُلْمَةً سدَّها، وإن بَدَت منك نعمةٌ عَدَّها، وإن مُدَّت يَدٌ إليك بفضلٍ مَدَّها، اِصْحَب من لا تختلفُ عليك منه الطَّرائقُ».

قال عبد الملك بنُ أَبجَرُ: ما أرى أراد هذا الرَّجلُ من ابنهِ إلاَّ أن لا يصحبَ أحدًا ـ أبدًا ـ!.

فقال سفيان: لا؛ ولكنَّه أدرك النَّاسَ معهم هذه الأخلاق، ولم يَدْرِ ما تُحْدِثون من النَّذالة.

[«المشيخة الكبرى» لأبي بكر الأنصاري (164)]

أثر البدع

✍ قال ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ونحارب على الخصوص البدع الَّتي أدخلت على الدِّين الَّذي هو قِوام الإخلاص فأفسدَتْه، وعاد وبالُ ذلك الفساد علينا، وتأخَّرنا من حيث يكون تقدُّمُنا، وسقطنا بما لا نرتفعُ إلاَّ به».

[«الآثار» (5/175)]

أفضل إخوانك

✍ قال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أخٌ لك كلَّما لقيكَ ذكَّرَك بحظِّكَ من اللهِ خيرٌ لك من أخٍ كلَّما لقيكَ وضعَ في يدِكَ دينارًا».

[«شعب الإيمان» للبيهقي (6/505)]

درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ

❏ «الشِّرك أعظم الفساد، كما أنَّ التَّوحيد أعظم الصَّلاح».

[«مجموع الفتاوى» (162/18)]

❏ «لو اعتصم رجل بالعلم الشَّرعيِّ من غير عمل بالواجب كان غاويًا، وإذا اعتصم بالعبادة الشَّرعيَّة من غير علم بالواجب كان ضالاً، والضَّلال سمة النَّصارى، والبغي سمة اليهود».

[«مجموع الفتاوى» (307/22)]

❏ «السَّعادة هي أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه».

[«النبوات» (ص122)]

❏ «من يرجو النَّفع والنَّصر من شخص ثمَّ يزعم أنَّه يحبُّه لله؛ فهذا من دسائس النُّفوس، ونفاق الأقوال».

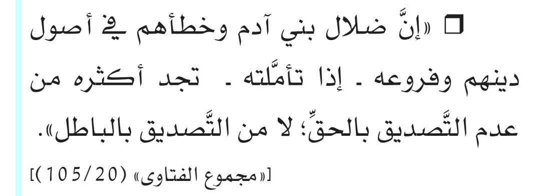
[«مجموع الفتاوى» (610/10)]

❏ «الصِّراط المستقيم أن يفعل العبد في كلِّ وقت ما أُمِر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نُهي عنه».

[«مجموع الفتاوى» (37/14)]

❏ «إذا وجد العبد تقصيرًا في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والإخوان؛ فعليه بالدُّعاء لهم، والاستغفار».

[«مجموع الفتاوى» (698/11)]



❏ «إنَّ ضلال بني آدم وخطأهم في أصول دينهم وفروعه - إذا تأمَّلته - تجد أكثره من عدم التَّصديق بالحقِّ؛ لا من التَّصديق بالباطل».

[«مجموع الفتاوى» (105/20)]

❏ «والمقصود بالزُّهد ترك ما يضرُّ العبد في الآخرة، وبالعبادة فعلُ ما ينفع في الآخرة، فإذا ترك الإنسان ما ينفعه في دينه وينفعه في آخرته، وفعل من العبادة ما يضرُّ فقد اعتدى وأسرف وإن ظنَّ ذلك زهدًا نافعًا وعبادة نافعة».

[«مجموع الفتاوى» (458/14)]



◎ جزى الله خيرًا الأخ شريف من بئر حدادة من منطقة سطيف على كلماته التَّشجيعيَّة، ونشكره بدورنا على تنبيهه على خطر الشِّيعة الرَّافضة في ولاية سطيف.

◎ أمَّا الإخوة الأفاضل عبد الوهَّاب بن موسى من ورقلة، وإلياس زرفاوي من حاسي الرَّمل بولاية الأغواط، ونور الدِّين معزوزي من بولوغين بالعاصمة، والأخ يوسف اليتيم؛ فنعلمهم وسائر القرَّاء الرَّاغبين في الاشتراك السَّنوي أنَّه في القريب القادم ـ إن شاء الله ..

◎ كما نتوجَّه بالشُّكر العميم إلى الأخ المفضال محمَّد بن عيش من مدينة المسيلة على خطابه الجميل، وحسن ظنِّه بإخوانه القائمين على هذه المجلَّة، ونعده أنَّ توجيهه وطلبه مأخوذ في عين الاعتبار، ولعلَّه سيرى في المستقبل ـ إن شاء الله ـ ما يسرُّه ويثلج صدره.

◎ الأخ المكرم مبروك سليمان من مدينة قالمة، أرسل مقالاً فيه موعظة ونصيحة، فجزاه الله خيرًا.

◎ كما نحيِّي الأخ المفضال كمال بدرين من بلدية العوانة بمدينة جيجل على رسالته اللَّطيفة الَّتي حوت معاني الحبِّ والودِّ، ونصائح غاليات، وأرفقها بثلاث قصائد جميلة، وطالبنا أن يكون شعارنا:

فجمعيَّة لنا سلف
ونحن في الدُّنا خلف
فبالإصلاح نمضي في
دروب الحقِّ لا الزَّيف
نجلي للعدى السُّنَّة
ونبغي روضة الجنَّة
فياربَّاه وفِّقنا
وسدِّدنا وثبِّتنا
وأخلص ربِّي مستقانا
وأصلح ربِّي دنيانا

فجزاه الله عنَّا كلَّ خير، وأثابنا وإيَّاه حسن الثَّواب.

◎ كما نسأل الله أن يجزل الثَّواب للأخ المكرَّم أبي أسامة خالد جدور من منطقة عين آزال بمدينة سطيف على الفائدة الَّتي أرسلها إلينا، ونعلمه أنَّ سلامه قد بلغ، وبارك الله فيه.

◎ ونشكر كثيرًا الأخ الحبيب هشام معمري الَّذي راسلنا عن طريق البريد الإلكتروني على دعائه لنا ولمجلَّتنا جميعًا، وأمَّا عن اقتراحه فنعتذر إليه؛ لأنَّه ليس في إمكاننا تحقيقه، والله الموفِّق لكلِّ خير.

◎ ونشكر الأخ الشَّابَّ توفيق بن عيسى من دائرة تاجنانت بولاية ميلة على تواصله معنا وعلى محاولته الشِّعريَّة وعلى غيرته الدِّينيَّة، ونسأل الله له التَّوفيق والسَّداد.

◎ كما نتوجَّه بالشُّكر للكثير من المحبِّين الَّذين لم تتَّضح لنا أسماؤهم لاستعمالهم أسماء مستعارة في البريد الإلكتروني وهم كثيرون جدًّا، فجزاهم الله خيرًا، ووفَّقنا الله تعالى وإيَّاهم للعلم النَّافع والعمل الصَّالح.